نحو مسرح إسلامي معاصر (١)

المأسورون

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
المقدمة
شخوص المسرحية
الفصل الاول
الفصل الثاني
تحليل شخوص المسرحية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(١)

إذا كانت سائر الفنون تنبثق عن تجربة انسان واحد ازاء عصره ، فان العمل المسرحي يتجاوز هذه التجربة الاساسية الواحدة الى تجارب اخرى تسهم في تقديمها شتى الامكانات والطاقات التي لا يتم العمل المسرحي الا بها ، كالممثل والمخرج والوسائل المادية والجماهير... ثم ان أي فن من الفنون المعاصرة لن يتأتى له ان يبلغ ما بلغه المسرح من روعة وعمق في تصوير ازمة العصر الراهن بكل أبعادها الفردية والجماعية ، باعتباره جماع الفنون كلها : الكلمة والحركة والموسيقى والصورة والتعبير والاضواء والظلال ، وبخاصة بعدما هيأت له التكنولوجيا الحديثة من وسائل آلية مكنته من اداء مهمته اروع أداء. هذا الى أن الكاتب المسرحي نفسه لا يمارس انتاجه الا وهو يتخيل شخوصه واحداثه تتحرك على خشية المسرح وتعكس بوضوح ما يريد أن يقوله. وهذه الشروط التي تلزم العمل المسرحي تجعله اكثر طواعية للتعبير عن أزمة العصر وتصوير معالمه الكبرى.

ان المسرح المعاصر ، على اختلاف اتجاهاته ، ما هو الا تجسيد حيٍ للقيم والمؤثرات التي تعمل عملها في حضارة هذا القرن ، وفي تجاربه الانسانية في شتى ابعادها. ويشير (كولن ولسون) الى اهمية المسرح وسيلة من وسائل التعبير الطبيعية لدى الفيلسوف الفنان ، ويؤكد انها – الى جانب القصة – الشكل الجدي الوحيد لفن الادب في القرن العشرين ، حيث نجد الشخصية الرئيسية فيها تنضج عبر تجاربها[١]، وكان الروائي الفرنسي فيكتور هوجو يقول : " ان الدراما مرآة تنعكس عليها الطبيعة ". ولنستدع كبار المسرحيين المعاصرين انفسهم، ليشهدوا بأنفسهم على أهمية المسرح مرآة تنعكس عليها معطيات القرن العشرين. فبرندللو الايطالي Luigi Pirandello يجد في المسرح " افضل الاشكال الادبية للتعبير عن تصويره للحياة وللمجتمع. فخشبة المسرح تعبر عن العالم الذي نضطرب فيه. والممثلون شخصيات حية اشد حياة وخلودا من بني البشر انفسهم ، وذلك مثل عطيل ودون كيشوت وسيروانودي براجراك، وهذه الشخصيات المسرحية لا تموت ولا تتبدل ، في حين ان كل شيء على مسرح الحياة في تبديل متصل"[٢] ويوجين يونيل O'neill الامريكي يقول : " ان الطريق الوحيد الذي كان يبدو

---

(١) سقوط الحضارة ، طبعة ٤ ، ص ٣.٢-٣.٣ ، ترجمة : انيس زكي حسن.

(٢) محمد اسماعيل محمد : مقدمة مسرحية (الليلة نرتجل) لبير ندللو ، ص ٨.

أنه بامكانه ان يعبّر عن خلجات نفسه هو الحوار"[٣]. أما كامي Albret Camus الفرنسي " فان ما كتبه ، كروائي وقصاص ، اتاح له ان يحلل وفق هواه ، وان يشرح في هدوء ، وتبعا لقواعد ثابتة ، معنى اللامعقول ومعنى التمرد. ولكن المسرح كان يتيح له الفرصة لان يوضح توضيحا كاملا ، وبعمق اكبر ، وبحركة ملموسة ، ما كان يعتز به ويكرره في فلسفته، ان الاطار المحدد للمسرحية كان يزيد رغبته وحاجته الى الخضوع للمقاييس والاصول ويضمن لتعبيره ، فرصا للتأثير والاطالة اعمق وادق من كتابة القصة"[٤] وسئل سلاكرو Armand Salacrou عن السبب في تشبثه بالمسرح فأجاب : " احب المسرح لانه يعطي حقيقة مرئية لما تخلقه روحي ، ولانه معبر بين افكاري وبين الاشياء التي تلمسها يداي.. وعلى الاقل استطيع ان ارى كيف تتحول اقوالي الى انواع من السلوك ، حتى ولو كان هذا السلوك لا يقوم به جسمي .." ان سلاكرو Salacrou لا يفعل ، اكثر من انه يختصر العالم الواسع الى ابعاد المسرح الضيِّقة لينتزع منه سره المكنون "[٥] ... ثم ها هو الشاهد الاخير: يوجين يونسكو Eugene Ionesco رائد المسرح الطليعي – مسرح اللامعقول – الذي التزم التعبير عن لامعقولية الكون وفوضى العالم وعبثه ، يقول " أنا عندما اكتب احاول ان افصح عن رؤياي للعالم كما يتبدى لي باكبر قدر مستطاع من الامانة والصدق ودون ان تجول في خاطري فكرة الدعوة الى رأي ، ودونما مطمع في ان اجعل من نفسي هاديا لضمائر معاصري ، فكل جهدي منصرف الى ان اجعل من نفسي ، داخل حدود ذاتيتي ، شاهدا موضوعيا ..."[٦].

ان تزايد النتاج المسرحي في العقود الاخيرة من هذا القرن ، وظهور اتجاهات مسرحية جديدة بين فترة واخرى ، ومحاولة عدد كبير من الكتاب جعل المسرح منصة احتجاج ضد قلق القرن العشرين وفوضاه وعذبه .. ما هي الا شواهد على أن هذا اللون من الفنون يشد الآن انظار قادة الفكر والفن ليعبروا من خلاله عما يعانون في خضم حضارة لا تعرف الانسان. وليس اروع من ان تتحول الافكار الى حركة ، والكلمات الى صراخ .. ان قرننا العشرين يحاول ان يسد اذنيه ويغمض عينيه ، وينطلق بالبشرية المنكودة الى مصيرها الفاجع .. ان الشعر والهمس والسرد الصامت المحصور بين دفتي كتاب ، لن يجدي ازاء هذا العمى وهذا الصمم. فلا أقل من ان يكون المسرح ملجأ يأوى اليه كل اولئك الذين يريدون ان يرفعوا صوتهم الى اعلى

---

(٣) نعيم عطية : مقدمة (سبع مسرحيات) ليونيل ، ص ١٣.

(٤) ريمون فرنسيس : مقدمة (العادلون) لكامي ، ص ١٦-١٧.

(٥) انيس فهمي : مقدمة (ليالي الغضب) لسلاكرو ، ص ٢٢-٢٣.

(٦) شفيق مقار: مقدمة (خمس مسرحيات طليعية) ليونسكو ، ص ٤.

طبقة ، علهم يستطيعون ان يسمعوا قرنهم المنكود ما يجول في خواطرهم من امل في الخلاص .. أو يفتحوا عينيه كي يتجاوز الهاوية التي تنتظره في نهاية الطريق.

(٢)

واذن .. افليس من حق الفنان المسلم ان يدلي بدلوه في هذا الميدان المؤثر الخطير؟ اليس من حقه أن يرتاد الافاق الجديدة الرحبة التي يطرحها هذا الفن ، ويعرض على قومه وامته صورا تعتمد الحركة والايماءة ، يقتطعها من واقعها المرير.. صورا تحيل الهمسة الى صرخة ، والكلمة الى انطلاقة ، والسكون الى مزيج من التشابك الدائم بين الاضواء والظلال؟؟ اليس من حق الفنان المسلم ان يعتمد كل ما يقدمه له هذا الفن من امكانات ، كي يجسد امام الناس الافكار التي تدور في خاطره ، والعواطف التي تعتمل في فؤاده ، والمشاعر التي تجيش في نفسه ووجدانه ، والرؤى التي تناغيه من بعيد .. يجسدها على الخشبة وجها لوجه امام الحشود التي تهزها الحركة والايماءة والتعبير والصرخة ، وتستشيرها بعمق ايقاعات الضوء والظلال ، والظهور والغياب ؟! بل اليس من واجب الفنان المسلم هذا ، أن يسهم في أي ميدان من ميادين الفن الفسيحة ، ما دام يرى فيها فاعلية معطاء يمكن ان تقربه من هدفه أو تقرب الجماهير منه؟!

بلى .. من واجب الفنان المسلم ان يدلي بدلوه ، وان لا يقف عاجزا ينظر من بعيد ، تتناوشه عوامل الاقدام والاحجام ، وتتوزعه دوافع القبول والرفض.

لقد علم الاسلام العرب ، يوم ان اخرجهم من جزيرتهم الى اطراف العالم ، علمهم درسا حضاريا سيظل باقيا على القرون : لا ترفضوا !! ما دمتم تحملون عقيدتكم في عقولكم وضمائركم وقلوبكم ووجدانكم ، فلا ترفضوا !! ما دمتم قد اسلمتم وجودكم واهدافكم ومحياكم ومماتكم لله .. فلا ترفضوا .. ما دمتم قد دخلتم السلم كافة ، وجئتم تحملون هذا السلم الى البشرية في كل مكان فلا ترفضوا. ولقد قال لهم الرسول يومها : خذوا الحكمة من أي وعاء خرجت ، وفتح اعينهم جيدا على ان تراث البشرية يجب ألا ينقطع ، والا يصيبه الدمار .. انه ملك مشترك لبني آدم في كل مكان وزمان وهو حصيلة كدّهم الدائم وكدحهم المشترك وجهادهم طويل. ان الاسلام يرفض باصرار ان يصيب الحضارة بانتكاسات تعود بها قرونا طويلة الى الوراء ، انه يرفض ان يقطع الخيط الذي يشد هذه الحضارة ويحفظ تماسكها ، ويرفض ان يلغي – ببساطة – معطيات هذه الحضارة الغاء عشوائيا .. ان ما علمهم الاسلام هو هذا : ان يفتحوا اعينهم جيدا ازاء كل ما تعرضه عليهم الحضارات الجديدة من قيم ومعطيات ، فيتمعنوا ويدرسوا ويتفكروا وينفذوا ويقارنوا ، ثم يصدروا حكمهم لا بالرفض أو القبول .. كلا ، فما علمهم الاسلام

الرفض الحضاري ، ولكن بالاختيار والانتقاء ، والعزل والفصل ، ثم اعادة البناء .. فقط ان يصدروا في فاعليتهم هذه عن القاعدة التي جاءهم بها الرسول (عليه السلام) ، لا يشذون عنها ولا ينحرفون : الاسلام ومن الاسلام وحده يمكنهم ان ينطلقوا لاعادة صياغة حضارة الانسان على عين الله الذي اسلموا وجوههم له !!

هذا الدرس العظيم ، أو ما يمكن تسميته (الاختيار الحضاري الاسلامي) ، هو الذي انشأ حضارة المسلمين في عصورها المعطاء ، وهو الذي هيأ لهم أن يتسلموا زمام المبادرة ، وان يتولوا قيادة التراث البشري بنجاح منقطع النظير وسط عواصف الجاهلية وانوائها التي احاطت بهم من كل مكان .. وهو .. هو الذي يتيح لكل انسان مسلم ، قي كل آونة وفي أي مكان ، فرصة الاختيار ازاء ما يحيط به من حضارات. وهل اجدر من الفنان المسلم ، ذلك الذي يحترق وجدانه بالحب والشوق ، ويتحرق لكل ما من شأنه ان يتيح له فرصة التعبير عما يعتمل في نفسه ازاء عصر التمرد والقلق والانعزال ؟! هل اجدر منه بهذا الاختيار ، وكسب هذه الفرصة التعبيرية الرائعة التي اتاحها له الدرس العظيم الذي علمه اياه الاسلام ؟!

(٣)

والمسرح شكل Form ومضمون Essence .. وما اظن احدا يماري في ان الشكل المسرحي نبتة تفتحت في الغرب، ثم اينعت وآتت اكلها هناك ، وان هذا الشكل الذي بدأ بالتراجيديات اليونانية في المعابد والعراء المكشوف ، ظل يتطور عبر العصور حتى بلغ قمة تعقيده وروعته في العصر الحديث بما اتاحته له التكنولوجيا المعاصرة من امكانيات ، وبما تهيأ له من متخصصين على درجة كبيرة من التمكن في شتى حقول العمل المسرحي.

أما المضمون فله قصة طويلة لا يسعها مجال كهذا[٧] ، والذي يهمنا هوانه ليس ثمة علاقة حتمية أو ارتباط عضوي بين الشكل والمضمون .. صحيح ان بعض المذاهب المسرحية المعاصرة : مسرح اللا معقول ، والمسرح الملحمي Epicad والمسرح التسجيلي Dokum ... الخ حاولت احداث ترابط من هذا النوع بين الشكل والمضمون ، وصحيح ان التراجيديات نفسها بدأت بنوع من التماسك الداخلي بينهما ، الا أن معظم مساحات العمل المسرحي في شتى العصور تعلمنا حقيقة اكثر اصالة من هذه الاستثناءات ، وهي ان المسرح كشكل يتميز بمرونة وطواعية تتيح له أن يتقبل أي مضمون ، من اقصى الروحية الى اقصى المادية ، ومن أشد المذاهب الواقعية التصاقا بالارض الى اكثر الاتجاهات الرومانسية اغراقا في الخيال. والمسرح الذي اعتمده يوربيدس وسوفو كليس واسخيلوس هو نفسه الذي اعتمده شكسبير

(٧) للمؤلف كتاب بعنوان (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر)، مؤسسة الرسالة ، بيروت–١٩٧٧.

ومارلو C. Marlo وفولتير وابسن ، وهو نفسه الذي اعتمده جيكوف وبرناردشو ، ثم هو نفسه الذي اعتمده، الفن المسرحي المعاصر ابتداء من برندللو ووايلدر Thornton Wilder ويوجين اونيل Eugene O'neill ، وحتى وليامز Williams وميللر Miller والبي في امريكا ، وجيرودو Giraudoux وكوكتو وآنوي Anouilh وسارتر Sarter وكامي وسالاركرو في فرنسا ، وبنتر Harold pinter واوزبورن وكوبر Giles Cooper في بريطانيا، ودرنمات Durrenmatt وماكس فريش في سويسرا والمانيا .. وما كان يحدث من خلافات في الشكل بين هؤلاء جميعا – على امتداد العصور التي ادوا فيها معطياتهم – لم يتعد الجانب التكنيكي فحسب، وفيما عدا هذا كان المسرح .. هو المسرح !!

لكن الذي تنازعته التيارات ، وتقاذفته الانواء يمينا وشمالا هو المضمون . المضمون الذي هو نتاج الارض الاوربية بكل ما تضمه هذه الارض من صراع وتناقضات وماتحويه في ثناياها من قلق وتمرّد ، أو تطرف غير معقول واغراق لا حدود له .. ان التراجيديات اليونانية الاولى عبرت عن صراع الانسان ضد حشود الالهة التي كانت تقف ابدا بوجه مطامحه وحريته، وكان مقدّراً على الانسان دائما ان يقهر ويهزم ، لكن ما كان يعزيه هو ما يمتلكه من بطولة كانت تدفع به في كثير من الاحيان الى أن يقاتل حتى النهاية ، رغم انه يعرف مسبقا مصيره الفاجع.

أما في العصور الوسطى فقد انهمرت على الناس المسرحيات (الاخلاقية Morality Play) و(مسرحيات المعجزات) ، وملأ المسرح رؤوسهم بقصص وعظية عن مفاهيم الصراع بين الخير والشر، كما ملأ احلامهم بالرؤى الشيطانية المخيفة التي لا تنتهي. وفي اعقاب عصر النهضة ظهر شكسبير ، في اعقاب العصر الذي ارتفع فيه شأن الفرد ، وانفتحت امام ناظريه ابواب العالم وكنوزه ، ظهر لكي يحيل الصراع بين الانسان والآلهة ، الى صراع بين الانسان والانسان ، او الى صراع يدور في اعماق البطل ذاته ، في عالمه الباطني.

وبعد قرنين من الزمان ، عندما حققت العلوم الطبيعية والاجتماعية قفزات ضخمة الى الامام ، سعى المسرح الى تقديم مضامين تعبر عن هذا الانتصار فظهر ابسن وشو وجيكوف وغيرهم .. وقد ظلت المضامين تتنقل وتتغير ، وكان هذا التغير والتنقل يزداد سرعة كلما ازدادت الحضارة تقدما ، حتى صرنا نجد مضامين عديدة تطرح خلال العقد الواحد من السنين .. وكلنا نعلم كيف خرج المسرح الاوربي على الناس – خلال اربعينات وخمسينات هذا القرن – بمضامين ومذاهب مسرحية شتى :

كالبعث واللامعقول Theater de 1,Avant-Garde والمسرح الملحمي Epicad ومسرح الغضب ، ثم اخيرا المسرح التسجيلي Dokum.

وستظل اوربا (وروسيا وامريكا بطبيعة الحال) تطرح مضامينها على الناس، مضمونا يناقضه مضمون ، ومذهبا يكتسحه مذهب ، ستظل تتقاذفها المبادىء والاتجاهات والمدارس المسرحية ، ما دامت في حياتها ووجودها لم تستقر بعد على مضمون ، ولا آمنت بفلسفة ، ولا ألقت القياد الى ربان ماهر يقود سفينتها المتعبة الى شاطيء الحرية والعدل والسلام !!

(٤)

وفرصة الاختيار المطروحة امام الفنان المسلم ، اذن هي أن يقبل المسرح كشكل فني وان يرفض المضمون .. والاسلام لم يقف يوما ازاء الاشكال ، لا في ميدان الحكم والادارة ، ولا في ميدان الاقتصاد والاجتماع ، ولا في ميدان الاداب والفنون ، على العكس – هو علمنا – حقيقة ان الاشكال قضية ديناميكية لايقرلها قرار ، وتكنيك متحرك لايقف عند حد ، الا لتجاوزه الى حدود اخرى .. ومن ثم فان التثبث بالشكل الواحد عبر العصور مناقضة لطبيعة الاشياء . والاسلام يرفض من الاشكال فقط تلك التي ارتبطت عضويا بمضامينها ، واصبح من الصعب فصل احداهما عن الاخرى ، والا تعرضتا للقتل ، او أخرجتا المتشبثين بهما عن قواعدهم العقائدية الاصيلة.

أشكال فكرية أو عقائدية من هذا النوع ، دعا الاسلام الى رفضها ، والاستعلاء عليها وعلى ما تبشر به من مضامين ، صوب اشكال ابتكرها الاسلام نفسه ، وربطها ربطاً حيويا بقيمه واهدافه.

واذا كان الفنان المسلم يشعر باستعلائه ازاء ما يطرحه الفن المسرحي من مضامين عبثية خاوية، أو مادية مغرقة ، أو خيالية مريضة ، او واقعية هابطة Realism ، أو طبيعية مسرفة ، أو رمزية وثنية Symbolism ، فانه من جهة اخرى– يفتح صدره للاشكال المسرحية الداينامية التي بدأت في العراء المكشوف ، وظلت تتطور حتى بلغت – في العصر الحاضر – المسرح الآلي الدوّار الذي يتيح عرض اشد المسرحيات تدللا وتمنعا على رجال الديكور Posters ومهندسي الانارة ، وجدران المسرح الثلاثة.

(٥)

من هذا الاختيار المساير لمنطق الاسلام ، والمنبثق عن تكوينه الحضاري ، يجد الفنان المسلم نفسه وقد اتيحت له فرصة جديدة للتعبير .. لان يقول ما يشاء بشكل اكثر تأثيرا وتحريكا .. لان يطرح مضامينه الكبرى ابتداء من موقف الانسان في الكون ، وقضية وجوده ومصيره وحريته وقدره ، ومحياه ومماته ، وحتى اعمق اعماقه الباطنية ، واشد تيارات وجدانه خفاء وتعقيدا

.. يطرح مضامينه وهو حرّ طليق من قيود المدارس المسرحية التي فرضت نفسها على العصور: كلاسيكية وكلاسيكية جديدة ، ورومانسية وواقعية ، وطبيعية ورمزية ، وتعبيرية ووجودية Exestentialism ، وملحمية وعبثية. فكل اتجاه من الاتجاهات كان ينبثق عن تصور يأباه الاسلام ويرفضه اشد الرفض ، لانه لا ينسجم اساسا ونظرته الى الكون والحياة والاشياء، او لأنه انعكاس – بدرجة أو اخرى – لعصور سادها تطرف ما ، في جانب من جوانب الحياة والفكر ، بينما انكمشت الجوانب الاخرى واصابها الضمور. أو لأن هذا التصور ليس سوى افرازات مرضية ، يطرح غثاءها فرد أو جماعة او حضارة يحاصرها الوباء ، وينخر في بنيانها السوس ، وينتظرها التدهور والسقوط في نهاية الطريق.

طيلة العصور التي خرجت على الناس بمسرحيات من شتى المذاهب والمدارس ، كان التطور الخاطىء ، والتجارب الذاتية المنحرفة هما المعين الذي تنبثق عنه تلك الاعمال .. منذ عصر اليونان حينما ارتكز التصور ، وقامت التجربة الباطنية ، على مهزلة صرع الانسان الاعزل ضد قوى الالهة العمياء التي تحاصره من كل مكان ، وتقاتله بسلاح رهيب ليس له نفاد .. وفيما بعد ، في عهود الرومان حيث الرغبة العاتية في اهتبال فرصة المتع والملذات قبل نزول الاجل المحتوم .. ثم في عهد (المسيحية الاوربية) حيث ضاعت القيم والمعتقدات الاصيلة التي جاء بها المسيح (عليه السلام) ، وبشر بها حواريوه ، وحيث طلع الاوربيون الوثنيون على الناس– بعد اعتناقهم المسيحية – بمزيج لا تجانس فيه بين العقائد ، وبخليط عجيب من القيم السماوية والوضعية ، وبمجموعة مرصوفة من التعاليم لا حياة فيها ، وبنظرات مهزوزة مبعثرة الى الكون والعالم والانسان ، لا يشدها خيط ، ولا يحيط بها اطار .. وفيما بعد ، في عصر النهضة ، حيث بلغت الفردية حداً مغرقا ، وحيث رفع مقام الانسان ، زيفا وتضليلا ، الى مصاف الالهة .. ثم فيما بعد حينما اكتسحت اوربا موجة العقل ، في عصر التنوير ، وما تلاها من ردة فعل دفعت الناس الى الاغراق في الخيال ، ثم ردة الفعل التالية حيث المادية الملتصقة بالأرض، والحيوانية المتخبطة بالوحل والطين .. ثم موجات الكفر والالحاد والعلمانية اثر الصراع المرير ضد تسلط رجال الدين والمؤسسات الكنسية ، وما تلا ذلك من تأكيد على القيم المادية ، وتكريس للوجود الانساني ، والفعالية الجماعية في اطارها الصلب الذي لا نفاذ منه لنسمة روح ، ولا أمل خلاله في لحظات من الحرية !!

وما حدث بعد هذا معروف : قامت الحربان العالميتان الاولى والثانية ، أحالتا اوربا الى أتون ضخم يحترق لهبا ونارا ، وفي اعماقه يموت الملايين. وفي اعقاب كل حرب، كانت شعوب اوربا تخرج من الاتون ، بما تبقى لها من انفاس ، وما احتفظت به من رمق خلال سني القتل والابادة والحريق ، تخرج هذه الجماعات مهدودة منهكة ، مريضة مرهقة ، ضائعة مذعورة ،

ممزقة يسحقها القلق ، تائهة يحيط بها اليأس .. تخرج لكي تفرز كدها وانهاكها ، مرضها وارهاقها ، ضياعها وذعرها وتمزقها وقلقها ويأسها ، مضامين فكرية سرعان ما تحتضنها الاشكال الفنية والادبية وبخاصة المسرح ، لما هو معروف من علاقة لا فصام لها بين هذه الاشكال وبين واقع الانسان الخارجي وتجاربه الباطنية .. ومن ثم نجد المسرح يطرح علينا في اعقاب هاتين الحربين مذاهب جديدة ، كالرمزية والوجودية والعبثية ، لتغطية هذا التأزم الوجداني الخطير في كيان الانسان الغربي.

(٦)

أفليس من حق الفنان المسلم ، لا أن يستعلي فحسب على مضامين تنبثق عن تصورات خاطئة منحرفة كهذه ، بل – وهذا هو المهم – ان يتقدم خطوات اخرى الى الامام ، وان يستخدم هذه الأداة الفنية الرائعة لطرح مضامينه هو ، المضامين التي يستمدها من تصوره الكلي الشامل المتكامل ، الصحيح ، للكون والعالم ولموقع الانسان والاشياء فيها ، ولطبيعة العلاقات التي تسود الموجودات ، وكنه ارتباطها بالله خالق الكون والعالم والانسان والاشياء .. والموجودات ..؟؟

أما آن للفنان المسلم أن يعوض ما فات اجداده من نقص في مجال التغطية التعبيرية للتصور الاسلامي الواسع ، وأن ينطلق من هذا التصور نفسه ، وبصيغ تعبيرية اكثر جدة وحيوية وطرافة ، صوب الآفاق التي تدعوه ان يحث الخطى اليها ، لكي يكتسح في طريقه فنون المرض والغثيان والدوار ، ويطلع على العالم بفنه الانساني الاصيل ، الذي يحتضن في اللحظة المشحونة الواحدة كل ما يضمه الكون من شحنات الحّس والوجدان .. ويجتاز برؤياه امداء الزمان والمكان ، محطما جدران المرئيات القريبة ، ساعيا ابدا صوب اكتناه السر العظيم والناموس الابدي الذي يسّير به الله من عليائه قوى السماوات والارض والحياة والاشياء .. طارحا عليهم – هذا الفنان – نداء الحب والحنان حينا ، والثورة والتمرد حينا آخر ، متقدما بهم – في فنونه – صوب ساحات الروح والاشراق حينا ، داخلا بهم منعطفات سعيهم اليومي وكدحهم المشترك حينا آخر، مصورا لهم تفاصيل حاضرهم الراهن وملامحه الدائمة ، متخطيا حدود الزمان : تارة الى الماضي حيث الخيال الفني الممتزج بوقائع التاريخ الكبرى، ومنعطفاته الفاصلة ، ومواقفه المشهورة ، وتارة اخرى الى المستقبل حيث الرؤى والاحلام ..؟؟

ليس ثمة ما يحدّ الفنان المسلم أو يوقفه عن الحركة ، حيثما شاء وفي أي وقت شاء.. ليس ثمة ما يقف في طريقه صوب التعبير عن اكبر القضايا واصغرها .. عن اشدها قسوة وصلابة ، وأكثرها لينا ونداوة .. عن النجم الثاقب في اعماق السماء ، وعن خطفه الايمان

الغائرة في ثنايا الوجدان .. عن الأكوان والسدم والنجوم وهي تسبح في مداراتها الابدية .. وعن الذرات التي لا تراها العيون وهي تسبح بصمت وخفاء في تلافيف الاشياء .. عن الملأ الأعلى ، والعوالم الخفية والامم التي لا نعرف عنها الا القليل القليل : جنا وملائكة ، ارواحا هائمة في الملكوت ، وشياطين متحفزة متوثبة في الثنايا والمنعطفات .. وعن العالم الراهن بكل ما يحويه من متناقضات ، وما يثقل به من حّس وعذاب ، وما يؤرقه من رغبة عاتية في الحرية الحقيقية والعدل والسلام .. وقبل هذا وذاك فهناك ماهو اكثر اثارة واشد الحاحا على الفنان المسلم ، وهو يرى جاهلية تحيط به من كل مكان ، اينما اتجه وحيثما وضع خطاه .. جاهلية لم تبق على مكان واحد في الارض سليما معافى من جراثيمها وأمراضها .. لم تبق حتى على الهواء الذي يحيط بنا من اقطارنا الاربع ، وحتم علينا ان نتنفسه ، والاّ متنا .. نتنفسه فنجد انفسنا وقد انتقلت اليها العدوى والجراثيم .. من أي درجة وبأي مقدار .. والفنان المسلم ، يحّس اكثر من غيره مأساة هذا العفن الذي يسّمم الاجواء المعاصرة ، وهذا الفساد الذي طغى على البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، وهذا السوس الذي ينخر في موجودات الجاهلية الراهنة واشيائها وانسانها على السواء .. الفنان المسلم يجد نفسه (مسؤولا) عن تجسيد المأساة وتصويرها ، وعن تشخيص ما فيها من ادواء ، وعن تحديد معالم الطريق الذي يخلص الانسان المعاصر من الدوامة التي تطحنه ،ويخرج بها صوب افاق الصحة والعافية والخلاص .. مسؤولا امام الله ، وامام عقيدته ، وامام ضميره ، وامام فنه وقدرته على التعبير ، القدرة التي سيحاسبه الله عليها يوما : فيم انفقها ؟ وفي أي المجالات صرّف شحناتها التي لا تكف عن الاشتعال ؟.. الفنان المسلم مسؤول امام ارواح ألوف من اجداده واخوانه ، ماتوا وقتلوا وهم يكافحون من اجل كسر الحلقة المفرغة ، والخروج بالبشرية الى عرض الطريق .. ومسؤول – وهذا ما يدفعه الى الثورة والبكاء في الوقت نفسه – امام رسوله العظيم الذي اعطاه التعاليم ومنحه المسؤولية .. ومضى .. منتظرا من رواد امته ان يواصلوا المسير ..

(٧)

ان هذه الامداء التي تضم موجودات الكون التي لا تُرى ومنسربات النفوس التي لا تلمس، هي اعظم فرصة تعبيرية اتاحتها يوما عقيدة أو مذهب أو دين امام انسان فنان .. افليس من الحري ان يتقدم الفنان المسلم الى التزام كل الوسائل والاشكال التي تساعده على صياغة قدراته التعبيرية الواسعة هذه : قصائد ومقطوعات وقصصا ولوحات ، واغاني واناشيد .. ثم مسرحيات هي جماع ما في الفنون جميعا بما تعتمده من كلمة وحركة ، وموسيقى وصورة ، واضواء وظلال ؟!

(٨)

هذا هو مفهوم الاسلام للالتزام الفني : ان يمتلك الفنان – أولا – تصورا شاملا متكاملا صحيحا للكون والحياة والانسان ، يوازيه انفتاح وجداني دائم ،وتوتر نفسي لا ينضب له معين ازاء الكون والحياة والانسان .. ومن بعد هذا يجيء الالتزام .. عفويا .. متساوقا .. منسابا .. علاقته بالعطاء الفني لا تقوم مطلقا على القسر والتكلف والاكراه .. ولا تعترف ابدا بالمدرسية او الوعظية او المباشرة .. علاقته علاقة العيون الزرقاء بما تخرج به على حقول الربيع العطشى من ماء فرات .. علاقة التربة الطينية الخصبة الحمراء بما تغطي به وجه الارض من بحار لا حدود لها من السنابل الخضر .. علاقة البحر الهاديء والريح الرخاء بالمراكب التي تبحر بهدوء فجر كل يوم صوب ما قسم الله لها من ارزاق .. علاقة قرص الشمس القاني باشعته الدفيئة ، وكرة القمر الشفقية بنورها الواني ..علاقة الام بوليدها ، والارض بمعطياتها ، والسماوات بما تشعه من انوار ..

أي قسر هنا او عنف او إكراه ؟! اليس هو الوفاء الذي ما بعده وفاق ، والتناغم الذي يحيل كل شيء الى لحن لانهاية لروعته واعجازه ؟؟ ماالذي يجعل الطبيعة تتساوق مع معطياتها وتنسجم ... وتذوب ؟ .. اليس هو الناموس الاكبر الذي يسير به الله – الصانع المبدع – خلائقه جميعا؟! ومن قال ان الاسلام ليس هو هذا الناموس ، وهذا القدر العظيم ، الذي يفجر المياه من العيون ، والسنابل من التربة الطينية ، والاشعة الدفيئة من الشمس ، والاحلام من القمر ، والذي يخرج الجنين من بطن امه ، ويسير المراكب بالريح الرخاء ، ويغطي الارض والسماوات بزينة الهية من كل نوع ومن كل لون ؟؟ ومن قال ان الفنان المسلم هو هذه العين المائية أو هذا الحقل الاحمر ، او ذلك البحر الهاديء وتلك الريح ؟ ومن قال انه ليس تلك الشمس او ذلك القمر ؟ ومن قال ان قصائده واغانيه وقصصه ومسرحياته لا تتفجر عنه ، عن قلبه وعقله ووجدانه واعصابه وروحه : تماما كما تتفجر المياه من العيون ، والسنابل من الحقل ، والاشعة من الشمس ، والاحلام من القمر ؟! او ليس هو مخلوقا من مخلوقات الله؟! وهي .. الطبيعة ، اليست مخلوقة من مخلوقات الله ، وماذا قال لنا الله في القرآن ؟ الم يقل لنا انه ما من شيء في السماوات والارض الا ويسبح بحمد الله ؟ وان السدم في مداراتها الكبرى ، والذرات التي لا ترى في مساراتها الصغرى ، والملائكة والجان والحيوان والنبات والاشياء والموجودات تسبح جميعا بحمد الله ..؟

العين وهي تتفجر ماءا ، تذعن لامر الله وقدره ، فتسبح بحمده .. والحقل وهو يتفتح عن بحر السنابل الخضر ، يذعن لامر الله وقدره فيسبح بحمده .. البحر وهو يحمل المراكب ، والريح وهي تسوقها ، تذعن لامر الله فتسبح بحمده .. الشمس وهي ترسل

اشعتها ، والقمر وهو يبعث احلامه ، يذعنان لامر الله وقدره فيسبحان بحمده .. والوليد وهو يخرج من بطن امه ، يذعن لامر الله وقدره فيسبح بحمده .. السدم وهي تدور في افلاكها الكبرى، والجزيئات وهي تنشط في مساراتها التي لا ترى ، تذعن لامر الله وقدره فتسبح بحمده .. فاذا تساوق الانسان مع سائر الخلائق ، وسبح في فنه بحمد الله .. ايكون قد خرج عن الناموس .. ايمكن وصف هذا التناغم ، وهذا التآلف بين الخلائق جميعا بانه قسر وتكلف واكراه ؟!

هذا اذن هو مفهوم الاسلام للالتزام الفني : تصور لايتحرك الفنان الا على ضوئه ، وبنوره .. وحس وجداني مفعم ، يمنحه فرصة الوفاق مع كل شيء .. وبين هذا وذاك يبدو الفن الاسلامي كالينبوع الذي لا ينضب ، وكنور الشمس والقمر اللذين لا يكفان عن ارسال النور، وكالارض الخصبة التي لا تكف عن بعث الحياة والجمال على سطح الارض .. وبين هذا وذاك يتدفق الفن الاسلامي شعاعا ورديا – حينا – يغني للتناغم والتالف والانسجام ، وينصب حينا اخر نارا تحرق الدنس والشوائب والصغار ..واحيانا ثالثة يتفجر حمما تقذف الطواغيت ، وتسحق رؤوس الذين يعبدون الناس للناس من دون الله ، كما تقذف السماء شهبها الحارقة على الشياطين الذين يسترقون السمع من الملأ الاعلى ، ويسعون الى الاشتراك مع الخالق في الاطلاع على الغيب المضمر البعيد ..

هذه مساحات الفن الاسلامي ، وهذا مداه .. وفي مراته الثلاث لم يخرج عن سمته التي لا تزول : شهادة لا اله الا الله ، واسلام النفس له .. ومن ثم يجيء الالتزام عجيبا فذا ، لم تشهده مذاهب الفن الاخرى ومدارسه التي دعت الى الالتزام ، لكنها سرعان ما مارست الضغط والاكراه والتكلف والثنائية ، والازدواج والوعظ والمدرسية .. لا لشيء الا لانها لم تطرح التصور الذي ينسجم وفطرة الكون والانسان ، والا لانها لم تشحن حس فنانيها بما يفتح وجدانهم على مايحيط بهم من مخلوقات !!

(٩)

بهذا نكون قد وضعنا ايدينا على مشكلة الفن الاسلامي والالتزام ، وبهذا ايضا نكون قد حصلنا على جواب مسألة اخرى تقل خطورة ، تلك هي أن مسلمي اليوم – الذين تحاصرهم الجاهلية من كل مكان – بحاجة الى الثورة لا الى الفن ، والى الجد لا الى الترف .. ولكن من قال ان الفن الاسلامي ليس جناحا واسعا من اجنحة الثورة الاسلامية ، وانه الجد كل الجد حين يحين الجد ؟! الم تمر بنا قبل قليل عبارة ان الفن الاسلامي – مسرحا كان ام شعرا . قصة كان ام لوحة ام نشيداً – يتفجر احيانا حمما تقذف الطواغيت ، وتسحق رؤوس الذين يعبدون الناس للناس من دون الله ..؟ ثم هل من واجب فناني المسلمين اليوم ان يلقوا اقلامهم ، ويكتبوا

تجاربهم ورؤاهم ..؟ وماذا يقولون غدا لله اذا سألهم عن قدرتهم فيم انفقوها ، ولم كبتوها ؟ اباستطاعتهم – آنذاك– ان يقولوا اننا كنا ننتظر ؟! أفليس الجواب الذي يبده هذا العذر هو ان الاقلام نفسها سيوف من سيوف الله ، يرفعها الفنان المسلم – يوم يرفعها – ليستنهض همم الاخرين ، ويستنفر حماستهم للثورة .. أو لكي يشارك بقدرته الفذة على الصياغة ، اخوانه في ساحات الجهاد : هم بالسكين والرصاصة والقنبلة والصاورخ ، وهو بالكلمة ، والصرخة ، والحركة، والاضواء ، والالوان والظلال ؟!

(١٠)

والآن ، وبعد ان عرفنا شيئا عن الخطوط الاساسية لمضامين المسرح الاسلامي ، نعود الى الشكل .. هل ثمة ضرورة لاعادة صياغة الشكل المسرحي بما يتفق والمضامين الاسلاميتين؟ وهل ثمة ارتباط عضوي حيوي بين التصور والتجربة الاسلاميتين ، وبين الشكل المسرحي الذي تحتلاه ؟! الجواب نعم .. ولا ..

نعم ، لان الخلافات الجذرية بين المضمون الاسلامي وسائر المضامين الدينية والوضعية ، على درجة من العمق تمد تأثيرها المباشر على الشكل المسرحي الذي سيتخذ مجالا لطرح هذه المضامين فنياً .. وهذا التأثير المباشر سيظل يزداد امتدادا وعمقا وتشابكا بين الشكل والمضمون ، كلما ظهرت إلى الوجود مسرحية اسلامية جديدة .. إلى ان يأتي يوم نجد فيه انفسنا وجهاً لوجه أمام وحدة عضوية لا يمكن فصمها بين المضمون والشكل في المسرح الاسلامي خاصة وان الاسلام يفرض على الاخراج المسرحي تعديلات ذات اهمية بالغة يجب مراعاتها ، إذا ما اريد للمسرحية ان تحافظ على طابعها ، تحفظات في انتقاء عناصر التمثيل ، وازيائهم ، وفي حجب بعض الشخصيات ذات المكانة الدينية الخاصة عن الانظار والاكتفاء بنقل اصواتهم ، أو اعتماد عناصر تمثيلية اخرى (كالمنادين ، والكورس ، تكنيك المسرح داخل المسرح) لتنتقل إلى الشاهدين ما يدور خلف المشاهد من احداث[٨] ، وفي تصميم الديكور وتحديد طابعه العام وفي تنظيم المؤثرات الصوتية واختيارها .. كما ان المضمون – من جهة اخرى – يفتح مجالات جديدة ، وآفاقا واسعة امام المخرج ، ويدخل الى الخشبة شخوصا وادوارا لم تألفها المذاهب الاخرى ، ويحتم عليه استخدام مزيد من الامكانات والمؤثرات والوسائل المسرحية ، وأن يجري تغييرات اساسية في التكنيك لكي يستطيع الاستجابة لهذه المطالب من جهة ، ولكي يغطي على التحفظات من جهة اخرى.

---

(٨) انظر مسرحية (صرخة عند المسجد الاقصى) للمؤلف : مجلة حضارة الاسلام ، العدد ٦ ، السنة العاشرة.

ان ارتباط المضمون بالشكل المسرحي اصبح من الامور المألوفة في عالم المسرح في العصر الحديث ، وبخاصة في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية .. سيما بعد التجارب التي مارستها المذاهب الجديدة في ميدان الشكل المسرحي ، كمحاولات (برشت Bartolt Brecht) في مسرحه الملحمي ، و(بيتر وايس Peter Weiss) في مسرحه التسجيلي Dokum ، و(بكت) ويونسكو و(اداموف Arthur Adamov) و(جينيه) في مسرحهم الطليعي (مسرح العبث واللامعقول Thearter de L'Avant- Garde) .. وكلما ازداد رواد هذه المذاهب وتلاميذهم عطاء ، ازداد التشابك بين مضامينهم المسرحية واشكالهم ، الامر الذي يدفع الى القول بأن المسرح الاسلامي سيكون اشدّ ارتباطا بين الشكل والمضمون ، نظرا للخلاف الجذري الحاد بين منهجه وتصوره ، وبين المناهج والتصورات الاخرى .. هذا فضلا عن الخلافات في الشكل نفسه ، بينه وبين المذاهب الاخرى ، مما ذكرنا بعض جوانبه قبل قليل.

وتحديد ملامح الشكل المسرحي الاسلامي ليس من شأن النقاد الدارسين بقدر ما هو من شأن الكتاب المسرحيين انفسهم. فما دام (الشكل) مسألة دايناميـة ، فان المعطيات المسرحية نفسها هي التي ستحدد بمجموعها – في مستقبل قريب او بعيد – ملامح هذا الشكل .. ولو صادف وان وجد النقاد – الان – تراثا مسرحيا اسلاميا ، لكان بامكانهم ان يستنبطوا هذه الملامح .. الا ان معظم ما هو موجود من اعمال مسرحية لا يتعدى – الا في القليل النادر – المسرح التاريخي الكلاسيكي الذي يعتمد اقتطاع فترات وعينات من التاريخ – ابطالا واحداثا – لعرضها على المسرح. وهذا الاتجاه يستوي فيه المسرح التاريخي الاسلامي وغير الاسلامي وليس له أي تأثير على صياغة الشكل ..

ان الذي نعنيه هو المسرح الذي ينبثق عن التصور والتجربة الاسلاميتين اللتين عرضنا بعض ملامحهما في الصفحات الماضية ، وهما يمكن ان يبرزا في مسرحية معاصرة، كما يمكن ان يبرزا في مسرحية تاريخية ، بشرط ان يتجاوز هذا النوع تقاليده الكلاسيكية القديمة ، ويعتمد الاساليب التي تستنطق من التاريخ كل ما يمكن ان يقول ، محطمة الجدران التي تخنق الوقائع والدلالات ، ومعتمدة على تجاوز حدود المكان والزمان والتناسق الكمي للاحداث .. فالى ان يتم انشاء المسرح الاسلامي الاصيل – بكل ابعاده وشروطه – لن يتاح لاي ناقد ان يحدد – مسبقا – ما ستكون عليه ملامح الشكل .. والقضية – مرة اخرى – قضية فنية دايناميـة ، وليست تصميما مدرسيا ، هندسيا ، تعطى ملامحه مسبقا.

أما الجواب : لا .. أي انه ليس من الضروري اعادة صياغة الشكل المسرحي بما يتفق والمضامين الاسلامية ، فيقوم على ان الشكل المسرحي – في اساسه – ظل محتفظا بعناصره الرئيسية ، رغم المذاهب والاتجاهات التي توزعته ابتداء من عصوره الاولى وحتى السنين الاخيرة

.. ولقد ظلت هذه العناصر الرئيسية تمثل قاسما مشتركا اعظم ، ليس بمستطاع أي مذهب مسرحي الاستغناء عنها ، مهما بلغ من التطرف في تحطيم القواعد التقليدية والاغراب .. هل لمذهب مسرحي ان يستغني عن الممثل بشكل دائم ؟ هل بامكانه تجميد الحركة أو التعبير ؟ وهل بامكانه تجريد العمل المسرحي من الاضواء والظلال والمؤثرات الصوتية ؟ ثم – وهذا هو المهم – هل بامكانه ازالة الحواجز الثلاثة المحيطة بالمساحة المحدودة المسماة (خشبة المسرح)؟! هذه الوسائل ، وغيرها ، ظلت باقية على مر الزمان ، رغم التقلبات التي شهدتها الحركة المسرحية منذ عصر التراجيديا اليونانية وحتى المسرح التسجيلي ومسارح الغضب اللامعقول .. ومن ثم فان على المسرح الاسلامي ان يلتزم هو الاخر هذا القاسم المشترك للشكل المسرحي ، ومن خلاله يمكن للمخرج ان يعيد صياغة العوامل المسرحية : من طريقة اخراج وتمثيل ، وتصميم للديكور ، واختيار للمؤثرات الصوتية، وتوزيع الاضواء والظلال ، بما ينسجم والمضامين الجديدة التي يطرحها المسرح الاسلامي.

(١١)

تقوم مسرحية (المأسورون) على الصراع النفسي بين نماذج بشرية متنوعة ، متناقضة في تجاربها .. وهو صراع ذو ابعاد فكرية وروحية ووجدانية .. والحوار بين هذه النماذج النفسية المتنوعة ، التي يمكن ان تستقطبها كلمتا الكفر والايمان ، هو صورة للقرن العشرين .. فالمسرحية اذن تحاول ان تعالج مشكلة من اهم مشاكل هذا القرن ، بل اهمها على الاطلاق : هل يستطيع الانسان البعيد عن الله ، ان يحقق أمنه الذاتي وحريته الحقيقية ؟ ام ان ذلك مرهون بالعودة الى الله ، ونبذ كل المعطيات التي الزمتنا بها جاهلية القرن العشرين ..؟ وكما ان الفكر يقدم نفسه على مستويات شتى ، فكذلك الايمان .. درجات بعضها فوق بعض .. فبينما يخفق منطق الجيل القديم في تحقيق هدفه ، يبرز الى الوجود مؤمنون ادركوا اغوار المأساة ، ولديهم من عمق التجربة وحيوية المنطق ، ما يستطيعون معه ان يعيدوا الهاربين ، المعذبين ، الى الله .. فما هو دور المأساة اذن ؟

تنفجر المأساة منذ البدء في عرض الهوة الواسعة بين الابعاد النفسية للبطل وبين الحلول المادية التي لجأ اليها استجابة لأزمته. تتسع الهوة بالتقدم في الحوار ، وتتكشف عن خيبة كاملة تجابه البطل كالجدار .. وعندما يبدأ التمزق على مستوى الكينونة ، يكون الصراع بين الخير والشر قد اجتاز مرحلته الكلاسيكية الى اشكالٍ أخرى اكثر عمقا وابعد حدودا ومساحات .. فهو صراع بين القدر والحرية ، لا بمفهومه التراجيدي الذي بلغ قمته في اسطورتي (اوديب) و(سيزيف) وانا بمفهومه الايماني الذي يوضح الطاقة الهائلة التي اعطيت للانسان كي يختار،

وانه باختياره سيصل او يحطم نفسه ، وانه باختياره – كذلك – سيعود في نهاية المطاف .. الطريق المفتوح حتى النهاية .. هذه هي احدى ركائز المسرحية .. فكل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ..

والايماءات تتولى واحدة اثر واحدة .. ومن وراء الصراع والتمزق واليأس .. تتوالى بان البطل سيعود .. وكلما اقترب من اعماق الهاوية تكشفت امام وعيه العبثية التي تنبثق عن الموقف الالحادي بالضرورة .. وبدأ الشك بكل القيم التي يبعثها هذا الموقف .. شك ساخر ومنطقي في آن واحد ... يشير الى ان ما وراء الالحاد ايمان عميق الجذور ، وان كل المعاول التي يضربها الكفر في الاعماق ، لتمزيق تلك الجذور ، لا تعدو السطح .. وتبقى بعد ذلك كله، البذرة التي ركزت في فطرة الانسان .. البذرة التي تنتفض وتربو فجأة على اثر حادثة مأساوية ، أو قدر عنيف مفاجئ يهز الانسان من الاعماق .. ويحرك مجراه العميق البعيد باتجاه الله .. ومن هنا وجب على الانسان ان يعانق القدر لا ان يعاديه ، وان يستسلم ويفرح ، لا ان يتمرد ويحزن .. وان يضع نصب عينيه دائما ، ان وراء الاحداث والضربات القاصمة ، حكمة عليا تصنع وجود الانسان : **{ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ... }** .. وهكذا يعانق البطل مصيره الحقيقي .. ويلتقي بسعادته وحريته العميقة ، بعد ليل طويل من التمزق واليأس والعذاب، وبعد ان فتحت المأساة بصيرته – كما يقول – على الملكوت .. عبر نافذة بلا اطار ..

(١٢)

ان مسرحية (المأسورون) هي مسرحية الحوار والتناغم والصراع بين الثنائيات : الخير والشر ، البصر والبصيرة ، النور والظلام ، الماضي والحاضر ، الجيل القديم والجيل الجديد ، والذكرى والمستقبل ، السماء والارض ، الزمان والمكان ، الضحك والبكاء ..

ان قصة ابراهيم وصديقه المقتول لم ارد منها سوى ان تكون خلفية للمسرحية وهي في حقيقتها خلفية لحياتنا الراهنة . ان الانسان المؤمن في كلتا حالتيه : النزول من عليائه لهدي الناس ، او التمرد على الضلال والتوجه صوب الحق ، يجد نفسه مطاردا من قبل القوى البوليسية التي تتحكم الان بمصير الانسان ، وتسعى الى تحطيم كل محاولات الانقاذ عن طريق قتل روادها .. لقد اختار ابراهيم وصديقه ان يرحلا ، صعودا ونزولا من اجل خلاص العالم وابعاده عن مواطن العفن والفساد .. الا ان أحدهما أعدم والآخر ضرب بالرصاص ..

لكن هذا لا يعني ابدا ايحاء بعدم جدوى هذه المحاولات .. على العكس .. ان النداء الذي شد ابراهيم الى صديقه ، هو نداء الحياة نفسها ، نداء الطبيعة ذاتها ، النداء الذي ينبعث

دوما من قلب الفوضى والطين والفساد ، ليوجه العالم الى مصيره القويم ، ويعطي للحياة معناها الحقيقي الذي اراده لها الله .. انه نداء الانبياء والشهداء والقديسين ..

واذا ما وضعنا هذه الخلفية ازاء الحدث الدرامي الاساسي في المسرحية ، هذا الذي ينبثق في نفس (سعيد) ، في عالمه الداخلي ، ويتطور ، متحركا الى الامام حتى يجد خلاصه في عالم (احمد) المليء بالثقة والسعادة الحقيقية والايمان .. رأينا البناء على حقيقته : حوار بين صورتين ، في كل منها (نداء) يشد المتخبطين في الظلمات ويعلمهم طريق النور .. ان (سعيد) هو (ابراهيم) نفسه ، و(احمد) هو الصديق المقتول .. ولقد استجاب (سعيد) للنداء بعد ان فتحت ضربة القدر وعيه .. واستجاب ابراهيم للنداء .. ودفع حياته ثمنا لذلك ..

ان المسرحية تريد ان تقول للناس ان فوضى العالم وفساده ، وتمزق الانسان ودماره ، لا يمكن ان يبقيا الى ما لا نهاية ، طوقا يشل الانسان عن معانقة مصيره ، لان هناك دائما : نداءا علويا ينبثق في نفوس الناس ، في لحظات وعيهم العميق ، فيرفعهم – بقوة الايمان الخارق – الى فوق ، ويعطيهم القدرة على تحطيم الطوق ، وتخليص الآخرين. ومهما سعت القوة السفلى الى وقف عملية الصعود والاستجابة هذه ، بالقتل والطغيان ، فان النداءات ستزداد قوة وعنفا ، والاستجابات ستزداد تعاطفا وانسجاما .. والخير لا بد وان ينتصر على الشر .. ومعنى الحياة وهدفيتها لا بد وان تكتسح الفوضى والعبث والفساد ..

الموصل / عماد الدين خليل

(شخوص المسرحية)

الاب شيخ كبير ، يمارس مهنة بيع الكتب القديمة.

سعيد ابنه الاكبر (رسام).

احمد ابنه الاصغر (متخصص في علم النفس).

محمود

سالم اصدقاء لسعيد.

خالد

ابراهيم

رئيس الشياطين

ماجن شخوص شيطانية.

صفير

مارد

الفصل الاول

المشهد الاول

الزمن : أواخر الليل

المكان : " زقاق أمام بيت اعتيادي تبدو منه ، من وراء ستارة رقيقة ، صالة واثاث بسيط ..."

" في الجهة اليمنى .. يقف حارس ليلي جاوز الستين ، متكىء بارهاق على الجدار .. ربما كان نائما .. وبيده بندقية من النوع القديم ".

سعيد : بامكانكم الان ان تعودوا ..

خالد : انني لا احب فراقك .. ولكن

(ينتبه الحارس فجأة ويصيخ السمع)

سالم : لكم تمنيت ان تستمر سهرتنا الحافلة حتى الصباح .. تبا للزمن انه يجردنا ببساطة من لياليا ...

الحارس : (يتقدم صوب الجمهور ويخاطبهم) انظروا اليهم .. انهم يعودون كل يوم في هذا الوقت المتأخر من الليل .. وهم يترنحون .. فيملأون رأسي بهذه الاحاديث السخيفة .. وكأن الساعات الطويلة لم تكفهم لاشباع رغبتهم في الحديث .. (يتقدم خالد اليه من الخلف ويضربه بحصاة صغيرة على حين غفلة).

محمود : (مخاطبا سالما) ليس الزمن فحسب ، فهناك اولئك المخرفون الذين ينتظرون في اواخر الليل ، وهم يمارسون طقوسهم ، ليصبوا علينا اللعنات ، ويفقدونا احلامنا .. (يبدو والد سعيد من وراء الستارة الرقيقة وهو يتهيأ للصلاة).

الحارس : (مخاطبا الجمهور) ارأيتم ؟ انهم يتهموننا بالتخريف وكأن كل من جاوز الستين غدا من المخرفين .. وذلك البغل (يشير إلى خالد هامسا) الذي يقف هناك .. يحاول دائما ان يستغفلني .. فيتقدم الي من الخلف ويقذفني بما تصل اليه يده من اقذار ، وكأني لا اراه (يهمس) القذر ..

سعيد : استطيع ان اقول ان هذه اسعد ليلة في حياتي .. لقد بلغت فيها المدى !

خالد : طبعا ! (يهمس في اذن سالم)

الحارس : (مخاطبا الجمهور) ان بامكاني ان اقضي على هذا البغل بطلقة واحدة من هذه البندقية (يحركها مظهرا اعتزازه بها) .. ولكني اخاف .. ان لي اطفالا اعيلهم بالدنانير السبعة التي اقبض عليها في نهاية كل شهر .. لقد طلبوا مني ان احيل نفسي على المعاش ، لانني بلغت من الكبر عتيا ، ولكنني اجبتهم بانني ساخسر دينارين من مخصصاتي .. ومعنى هذا انني لن استطيع سداد ايجار الخربة التي نسكنها ..

سعيد : (مخاطبا خالدا) ماذا تقول ؟

خالد : (ضاحكا) يعني ..

الحارس : (للجمهور) يضحك وكأنه لم يدس على كرامتي .. ليس لي الا ان احيل الله عليك

سعيد : (لخالد) اوضح ما قلت والا حطمت رأسك ..

خالد : يظهر انها نفخت فيك روح الرجولة .. ونصبتك بطلا على رؤوسنا .. اتريد ان اذكر لك ما قلته له (مشيرا الى سالم) ؟

سعيد : (بتهديد) اسرع.

خالد : قلت له انك مارست الاحتكار بابشع صوره ، وتركتنا نتظر الفضلات من وراء الابواب الموصدة !!

سعيد : لو لم افعل ذلك لتهافتم كالكلاب الجائعة على اللحمة الطرية ، ولم تتركوا لي سوى العظام .. اللهم الا ابراهيم ..

الحارس : (للجمهور) ها .. نسيت ان اقول لكم انهم قد نقصوا اليوم واحدا .. لقد غدوا اربعة وكانوا خمسة .. كنت اعتقد ان الخامس سيغيب .. ان فراستي لا تخيب !!.

محمود : هل لاحظتموه هذه الليلة ؟

خالد : ما به ؟

محمود : قرأت في وجهه كآبة غير طبيعية .. لم نألفها منه سوى في الليالي الاخيرة ..

سالم : ليس هذا فحسب .. بل انه لم يشرب اليوم شيئا و..

خالد : (مقاطعا) وهل ترك سعيد له المجال في ان يقترب من الشيء الاخر الذي تقصده؟

الحارس : (للجمهور) لننصت اليهم لنعرف لم تغيب خامسهم ؟

سعيد : الحق اني بدأت لا ارتاح لوجود ابراهيم بيننا .. ان منظره في الايام الاخيرة .. واجم كئيب منكفىء على ذاته .. يعصر قلبي ..

محمود : ولكن علينا ان نتحمل مسؤوليتنا تجاهه ، وان لا نتركه هكذا نهبا للمخاوف ، والذكريات المريرة ، والاحزان ..

سعيد : ما لنا ولآمه ؟ لعنة الله عليه وعلى ذكرياته المريرة .. اننا نجتمع لشيء واحد هو ان نستمتع وننتشي ، وان ننسى كل ما يؤذي وما يحزن ..

الحارس : (للجمهور) ليتهم يتنازلون لي عن مصاريف ليلة واحدة من لياليهم .. اذا لعلمت اولادي كيف يكون العيد ؟!

خالد : (للحارس) انت هناك !! اقفل فمك. وكفاك همسا .. والا قطعت لسانك ..

سعيد : ثقوا انني لو شاهدت ابراهيم مرة اخرى يحاول ان يعكر صفونا بسوداويته .. لسوف احطم عشرين كأسا على رأسه ..

خالد : (لسعيد) انقذ نفسك من ابيك اولا، وبعدئذ قم بجولاتك البطولية .. ولكن احذر من ممارسة الاحتكار مرة اخرى .. تحركوا يا جماعة ..

الحارس : (للجمهور) الى لعنة الله ..

سالم : (لخالد) قبل ان يصفعك سعيد كعادته .. ان صفعاته يضرب بها المثل !!

الحارس : وهل احلم بصفعة يتلقاها منه ؟

سعيد : (بعصبية) سخيف !!

محمود : لقد حان الوقت للانصراف ..

سالم : واتضح الخيط الابيض من الاسود .. (يغادرون المكان)

الحارس : (للجمهور) عندما يتضح الخيط الابيض من الاسود يمسك هؤلاء عن سخافاتهم ..

خالد : (مبتعدا) وويل لسعيد من ابيه ، لكم اتمنى ان يثأر ابوه لنا منه .. لقد حرمنا هذه الليلة .. لعنة الله عليه (يوجه ضربة للحارس ، صارخا بسعيد) الى اللقاء !! (يختفون تماما .. يخرج سعيد المفتاح من جيبيه ، يضعه في الباب الرمزي)

الحارس : ها هو ذا يدخل البيت .. ان اباه شيخ كبير .. انه لن يحتمل هذه الحال .. اني احس بان شيئا ما سيقع .. (يتثاءب) .. شيئا ما سيقع .. (يعود الى النوم في اقصى اليمين) (بينما يكون سعيد قد دخل البيت)

الابن : (سعيد داخل الصالة في مواجهة الجمهور) ها انا ذا أعود بعد رحلة عجيبة في عالم اللذات .. لقد قطفت من كل الثمرات ، فلما سئمت بحثت عن الثمرة التي اكلها ابونا آدم وسجل بها الانتصار الاول لحرية الانسان (يضحك) .. وانت يا أبتي لا زلت تصلي كعادتك في فجر كل يوم .. لمن ؟ قل لي يا أبتي لمن ؟ ستقول لله ، ومن هو الله ؟ ارني اياه (يضحك) اوه (يقترب من ابيه) لقد تذكرت الان .. انك تبحث عن السراب لانك اضعف من ان تحصل على طيبات الحياة ، اما انا فقد حصلت على ما اريد .. اليس من العبث ان اركض وراء السراب ؟ اية غانية لم ترتم في احضاني ؟ واية كأس لم اشربها حتى الثمالة واية لذة لم اسع اليها لاقبض عليها بيد من حديد ؟ واية ليلة مضت دون ان اترع فيها وجودي بالحب اول اليل .. والغرام في منتصفه .. ثم .. (يسلم الاب منهيا صلاته ، ويأخذ في التسبيح بحركة عصبية).

الاب : كفى يا سعيد .. انك تسير في طريق الضلال .. انك تغضب الله لكي ترضى الشيطان ..

سعيد : اذا حققت لذتي وسعادتي برضا الشيطان ، فمن السخرية ان اشقى واتعذب برضا الله ..

الاب : لا يا بني .. ما هكذا فكر ابوك في يوم من الايام وما كان جدك هكذا ... كانوا جميعا مؤمنين بان الحياة وسيلتهم الى الاخرة ، وان اخرتهم ، اذا اقتضت منهم التخلي عن بعض طيبات الحياة ، تركوها قريري العين وحمدوا الله .. ما هكذا كان ابوك ولا جدك يا بني ..

سعيد : ابي وجدي .. وكل الذين سبقوهم .. اجيال طويلة يحزنني ان اراها تركض خلف القيود لكي ترسف فيها بارادتها ، واذا سألتهم عم دفعهم الى هذا العبث، قالوا لك انه الشيطان !!

الاب : (في تسبيحه) اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

سعيد : تقول الشيطان ايضا وتتعوذ بالله منه .. وماذا عمل لكم الشيطان ؟ رمز انتم اصطنعتموه واباؤكم وانبياؤكم لكي تمسخوا به معنى الحرية الحقيقية وترسفوا في القيود ..

الاب : الشيطان هو الذي انزل ابانا آدم الى الارض .. وسبب طرده من الجنة .. كل ما نقاسيه في هذه الحياة الدنيا من متاعب وهموم يقف خلفه الشيطان ..

سعيد : حتى لو تحقق وجوده .. فليس هو الذي يرفع في وجوهكم السلاح .. انتم الذين تحترق اعماقكم بجحيم اللذات والشهوات وتتمنون أن تشبعوها لولا التقاليد التي وضعتموها وانبياؤكم في الطريق .. ثم تقولون الشيطان !!

الاب : (في تسبيحه) (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس، كان من الجن ففسق عن امر ربه أفتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلاً !!)

سعيد : هذا التقليد البليد .. وهذه الحركات التي لا معنى لها .. وهذه الايام التربية التي تمضي دونما ابتكار ذاتي ودونما تجديد .. اشياء تكاد تخنقني بمجرد ان افكر في الانضواء اليها في يوم من الايام ...

الاب : (منهيا تسبيحه) اسمع يا سعيد ، اريد ان اقول لك شيئا لفت نظري وانا اقرأ في كتاب ..

سعيد : (مقاطعا) مما تبيعه يوميا في حانوتك القديم على الدجالين والمشعوذين ، يكفنه الغبار ، وتنخر فيه السوس وتأكله الصفرة.

الاب : دعني اتكلم .. لحظة واحدة.

سعيد : كل هؤلاء الذين يأتون الى حانوتك يوميا .. ويقفون هناك ليتناقشوا في هذا التراث .. ليجتروا ما فيه اجترارا .. كل هؤلاء المتبطلين الذين نسيهم الزمن وعافتهم الارض .. يأتون اليك ليعيدوا الى ذاكرتهم ما قاله بعض الشيوخ في زمان قديم .. كل هؤلاء لا يساون في نظري انسانا واحدا .. واحدا فقط .. عرف كيف يتخلص من اسار التراث ويفتح عينيه على اعماقه يستمد منها الطريق ...

الاب : استمع الّي يا بني .. لحظة واحدة لأوضح لك شيئا .. وان كنت اعتقد ان التعبير سيخونني وانني سأتكلم بلا اسلوب ..

سعيد : طبعا .. فالتراث لا يعطي لعبيده الاسلوب الذاتي في التعبير ، ولا يعطيهم أي شيء ، سوى (بسخرية) الاجترار والتقليد البليد !!

الاب : على العكس يا بني .. انه يعطينا الروح ويلقي في اعماقنا مزيدا من الاطمئنان ويوحد اشتاتنا ، فيغدو كل واحد منا انسانا واحد لا الف انسان .. انا واثق ان هناك اشخاصا شتى يصطرعون في اعماقك ، كلّ منهم يدفعك الى طريق ، وانت حائر ممزق لا تدري ايهم تتبع ولا الى ايهم تلقي القياد ..

سعيد : لاني لا اريد ان اسير .. بلا وعي او ارادة .. في قطيع وراء راعيه ..

الاب : انك اسأت كلامي .. وتسرعت في اجابتي بهذه التعابير الجاهزة التي صنعها لكم القرن العشرون !!

سعيد : لأنك تتكلم بما صنعه لكم القرن العاشر.

الاب : على العكس مما تتصور .. اردت ان اقول لك ان التراث الذي سخرت منه ، هو وحده القادر على توحيد الممزقين واعطاء كل واحد منهم – اتدرك ما اقول – كل واحد منهم ارادته وحريته في ان يصنع ما يريد .. اقول هذا فاذا بك تجابهني ..

سعيد : بماذا ؟

الاب : بانك لا تريد ان تكون فردا في قطيع ..

سعيد : وراء راعيه ..

الاب : هذا التسرع الذي تطلقون به احكامكم على الاشياء .. هو الخطأ الاكبر لجبيلكم الحائر ، المتخبط في الف طريق ..

سعيد : لان ابناء القرن العشرين لا يملكون اعناقا كأعناق الجمال (يضحك) ..

الاب : (مستمرا) الخطيئة التي قضت على الروح والتوحد الذاتي والاطمئنان ..

سعيد : (يصرخ) لقد ملأت اسماعي بهذه الكلمات .. الروح التوحيد .. الاطمئنان .. اليس عندك غير هذا ؟؟

الاب : لاني اريد ان اعالجك بالدواء الذي يشفيك .. انك مريض يا بني ..

سعيد : (مقاطعا) قدم لي كأسا من النبيذ وتكلم ما شئت فاني لك سامع مطيع ..

الاب : (متمما) فلأخاطبك بصوت الابوة .. كف عن هذا يا بني ..

سعيد : وهل انا من المؤمنين بهذا الرباط لاقدم عنقي اليه فيعصره ويسد عنه منافذ الهواء؟

الاب : انني ابوك ، وانت ابني .. قطعة مني وجزء من كياني وفلذة من كبدي ، وانا ملزم ان اجابه معك ما يشقيك لاقضي عليه .. ان اتقدمك عندما يغلن الزمن حربه عليك .. ان افتح صدري لاتلقى نباله كي لا تصيب صدرك .. وان ادافع بيدي المجردتين من السلاح القاهر كي لا يدمي يديك .. انك ابني وان العاطفة التي اشعر بها نحوك تدفعني الى ان اموت لتبقى انت حيا اتفهم ما اقول ؟

سعيد : لا أومن بالعواطف التي صنعها لنا التاريخ قوالب جاهزة .. الابوة .. الامومة .. الى اخر هذه المصطلحات الخالية من المعنى والتي لا تحرك وجودي باي اتجاه .. انني حر .. وان حريتي تلزمني بان اصفع كل من يقيّدها .. وادوسه بقدمي .. وسوف يأتي اليوم الذي ستدفعني هذه الحرية فيه الى ان اصفع الابوة الجاهزة .. كي لا اسمع بعدها شيئا عن الروح والاطمئنان ..

الاب : ان حنان الابوة يجعلني اشفق عليك .. ويكاد يقتلني الحزن كلما فكرت في اليوم الذي ستودع فيه هذه الحياة الزائلة ليستقبلك القبر ، لا طاقة لي يا بني على تصور العذاب الذي سيصدمك هناك ولكن ..

سعيد : ولكن ماذا ؟

الاب : كل بني آدم خطاء .. وخير الخطائين التوابون ..

سعيد : ومن قال لك اني سأتوب .. وهل انا اعترف بخطيئتي كي احاول التوبة ؟ ليس ثمة خطيئة .. ليس ثمة حلال او حرام .. كل ما هنالك اننا وهبنا هذه الفرصة مرة واحدة فلنعشها كلها و ..

الاب : (مقاطعا) وابوك ياسعيد ؟ ألا تعطف عليه ؟ ألا ترحم شيخوخته ؟ لقد ضحى من اجلك بالكثير منذ رأت عيناك النور .. ضحى من اجلك باعز ما كان يملك لانك قرة عينه ..

سعيد : ارجوك الا تعيد علي حادثة مجموعة الكتب الثمينة التي اضطررت الى بيعها ، وانفقت ثمنها على الاطباء بسخاء ليعالجوا عيني ..

الاب : انا لا اريد منك سوى شيء واحد ، ان تكف عن الانسياق وراء خطوات الشيطان وان تتبع نداء الفطرة ..

سعيد : واتنازل ببساطة عن الفرصة التي اتيحت لي .. (يصرخ) ولماذا هذه المطاردة يا أبي ؟ الا تدعني وشأني .. ان اليأس يكاد يقتلني والحيرة تمزق اعصابي .. لقد عدت ليلة امس مرهقا لاخذ قسطي من النوم ، فاذا بك تتصدى لي لتقدمني إلى جلسة اخرى من محاكماتك لي .. ولكن اسمح لي بلحظة واحدة لكي آتي لك بالشهود والنظارة فانهم يملأون الطرقات .. وتضج بهم الملاهي والحانات (يضحك) ..

الاب : كفى سخرية يا سعيد .. لم يبق لي ايما شيء .. احترقت امك .. وغادر اخوك البلد منذ زمان بعيد ، وليس في نيته ان يعود .. (فاصل موسيقي .. حركة ..)

الاب : (متمتما مع نفسه) .." اخرج بالعزم من هذا الفناء الضيق المحشو بالافات الى ذلك الفناء الرحب .. فهنالك لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب ..

فيا دارها بالخيف ان مزارها

قريب ولكن دون ذلك اهوال "..

سعيد : (مكدودا) ها قدت عدت من جديد..

الاب : لا ادعو لك الا بان يهديك الله قبل ان تحل بنا كارثة اخرى .. او تخسر نفسك ..

سعيد : انا اخسر نفسي ؟ (يضحك) لم ار في حياتي اكثر دجلا وشعوذة من هؤلاء (مشيرا إلى ابيه) .. لقد علمنا (فرويد) الكثير ... (يدير ظهره لابيه) من جملة ما قاله ان اؤلئك الذين يكبتون في اعماقهم رغباتهم ودوافعهم الفطرية .. يعودون من جديد .. ومن اعماق اللاشعور ، ليسقطوها على الاخرين ..

الاب : (غير متلفت اليه)

فيا دارها بالخيف ان مزارها

قريب ولكن دون ذلك اهوال

سعيد : (يلتفت الى ابيه) وانت ايها المسكين ، كبت الكثير من نزواتك في عهد شبابك فخسرت زهرة العمر .. وجئت لتقول لي لا اريد ان تخسر نفسك .. ولم اخسر نفسي وقد اترعتها بكل ما هو لذيذ ؟ فاذا مت .. مت قرير العين .. لقد ربحت حياتي ووجودي هنا على هذه الارض ولأخسر بعدها جنتكم الموعودة ..

الاب : (يرفع صوته قليلا) (قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهو يحسبون انهم يحسنون صنعا ؟)

سعيد : (يبدو الارهاق والرعب في عينيه) لا ترهق اعصابي بادعية واوراد تأتي بها من ظلمات الغيب .. والا ..

الاب : (اؤلئك الذين كفروا بايات ربهم ولقائه ، فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ..)

سعيد : (يتقدم من ابيه ، ويصرخ في وجهه) قلت لك لا ترهق اعصابي بهذا الكلام ، لقد سئمت هذا الوعيد .. اتسمع .. لقد سئمت ؟! كل يوم آتي الى هنا طائرا على جناحي الشوق والنشوة .. حاملا كل خيال جميل .. حالما بالليلة التي ستلي والكؤوس التي سأشربها حتى الثمالة .. والغواني اللواتي سيرتمين في احضاني .. كل يوم اتي الى هنا (يبتعد عن ابيه) ليصدمني منظر هذا الدجال

وهو يقوم بحركات تثير الشفقة .. وكلماته وهي تنبعث من اعماق القبور .. لم اعد احتمل اكثر من هذا .. اتسمع (يقترب اكثر من ابيه)

الاب : (يتمتم بتوسل) ارحمه يا الهي انه ابني ..(مؤثرات صوتية .. صدى الاية .. انه عمل غير صالح .. انه ليس من اهلك .. تكرر ..)

سعيد : (في حالة هذيان ، يرفع رأسه الى مصدر الصوت بحركات شبه مجنونة .. يبتعد عن ابيه .. بينما يرتفع صدى الاية .. ثم يلتفت فجأة عائدا الى ابيه بسرعة ويصفعه .. يسكت الصوت .. يرتفع صراخ الموسيقى .. يقع الاب على الارض وهو يتمتم ارحمه يا الهي انه ابني ...)

سعيد : (صارخا) لا اريد ان يرحمني ربك .. لا اريد .. ايها الشيطان هيىء لي غدا كل اللذات ، الكؤوس والاجساد .. اتستمع الى ما اقول ؟؟ كل اللذات .. فقد سئمت هذا الرجل .. ولتلعني انت اذا انا لم اكن حاضرا لاستقبالك هنا في هذه المكان ..

(يمتزج صراخ الموسيقى .. بتوسلات الاب .. بضحكات الشيطان ...)

المشهد الثاني

المكان : المنظر السابق ..

الزمان : اصيل اليوم نفسه

(يظهر الحارس وينصت الى ضجة السكارى داخل البيت .. تأخذه الدهشة .. يتجه صوب الجمهور ويشير الى البيت)

الحارس : انكم ترون كيف غدا البيت الذي كانت تقام فيه الصلوات فجر كل يوم ، حانة تضج بروائح الخمور واصوات السكارى .. انهم يطردوننا من كل مكان .. وها هم اليوم يستولون على البيوت مبعدين عنها اباءهم ... وهل لنا ان نتصدى لمقاومة هذا النزق وهذا الطيش ؟؟ لقد حاولت مرة منع احدهم فاجابني بصفعة قاسية على وجهي، وهددني بقطع لساني .. ليس لنا الان الا ان نترك لهم مواقعنا وننسحب الى الظل صاميتن ، نجتر ذكرياتنا عبر ما تبقى في اعمارنا من سنين .. اترون ثمة وسيلة اخرى ..؟ (ينسحب وهو يردد نظره بين الجمهور وبين البيت الذي تكشفت ستائره عن الاصداقاء وهم يديرون الكؤوس)

سعيد : (شاربا كأسه حتى الثمالة ، متأملا فيها) : بك نسوق نفوسنا الى ما نحب ، نعطيها الفرحة او الحزن العميق او الحب .. ولكن ما اكثر اللحظات التي تهزمنا فيها مشاعرنا ، رغمك ، ولا نجد بعد صراعها اخيرا الا الاستسلام ..

محمود : ولكنه استسلام مجنح بالنشوة .. ها انذا احس باني احلق في عوالم ليس لها نهايات .. وافاق رائعة مالها من حدود ..

سعيد : عندما تفتّح وعيي على الحياة كان القلق والاوهام ينتظراني في بداية الطريق .. وناداني ابي مرارا ان لا اذهب معهما .. وكان يلوح لي دائما بالروح والتوحد الذاتي والاطمئنان .. فقلت : اهرب من الطريقين ، لا السكون ، ولا التمزق .. وانا شاب بعد وامامي الكثير .. وما لبثت اللعنة ان حلت بالبيت ومن فيه .. شبت نار عاتية ، اثر خطأ بسيط وراحت تلتهم كل ما فيه .. كنت آنذاك اراجع دروس الامتحان الاخير في المرحلة الثانوية ، وعندما رفعت رأسي عن الكتاب ، عقدت الدهشة لساني .. كانت النار قد فتحت ثغرات سوداء في باب الغرفة وراحت تمد السنتها المخيفة نحوي .. ومن

خلال الدهشة والرعب ، طرقت سمعي اصوات واهنة ، وانين يقطع الفؤاد ، عرفت بغريزتي انها كانت تصدر عن امي ..

محمود : وهل استطعت ان تفعل شيئا والنار تحاصرك ؟

سعيد : قفزت كالمجنون ، ورحت اجري عبر السنة النار وهي تضرب وجهي وعيني، عندما بلغت مصدر النداء كنت قد فقدت القدرة كليا على الابصار ، شعرت ان النار قد اقتلعت عيني من محاجرهما .. وهناك ، وانا اتخبط كالاعمى وسط النار والدخان، لفظت امي انفاسها الاخيرة ، دون ان استطيع عمل أي شيء ازاءها .. على الاقل ان اشعرها اني بجانبها في لحظاتها الاخيرة .. وما حدث بعد هذا معروف .. وقف ابي كالعملاق ازاء الحادثة التي حطمت بيته .. استرجع بالله ، واعتصم بايمانه الداخلي .. كل ما كان يهمه هو ان يجمع مبلغا من المال لينقذ به عيني .. ولم يجد اخيرا بدا من ان يبيع ما في دكانه من كتب .. اما اخي فقد وجد في رحلته الى الخارج خلاصا من رؤية ابي وهو يعاني بصمت .. وما ان شعرت انا بعودة قدرتي على الابصار حتى بدأت اطمح الى الفرار ..

سالم : ورأيتك اول ما رأيتك تسير وحدك في الليل دونما رفيق ..

سعيد : كنت حينذاك اجرر معي ألمي وكآبتي واوهامي .. كنت اعتقد اني استطيع الفرار الى حيث السعادة الحقيقية .. ولكن الشك كان يمد ظلاله السوداء .. ويتبعني بخطواته الكئيبة .. هربت منه واطلقت صرخاتي في السماء ، علّ الصراخ ينقذني، لكن الظلال السوداء لم تتركني لحظة ..

محمود : لو اجبت نداء ابيك منذ اللحظة الاولى ، لكان يمكن ان يتغير مجرى حياتك ومن ثم تلتقي بالسعادة المنشودة .. (يضحك) ..

سالم : ولكنه مع ذلك لم يجب ندائي انا الاخر ، عندما لوحت له بالكأس الاولى .. قلت له بان كأسا واحدة ستنقله الى ما يريد ، وانها ستحيل كل شيء الى بسمة لا نهائية .. الى سماء زرقاء صافية ، وشمس دافئة ، ونسيم رقيق تذوب فيه الاشياء رقة وحنانا !!

سعيد : رفضت نداءك الاول بالطبع .. لانني كنت اريد ان اصوغ وجودي بارداة واعية .. كنت اتمزق كل يوم الف مرة ، واعود لاصوغ وجودي المهدم من جديد ، ولكن دونما جدوى .. تملكني احساس عميق بالغرق .. ورغبة عاتية بالتلاشي .. كنت مرهقا .. يائسا .. مكدودا .. فمددت يدي الى

الكأس الاولى .. لم يكن ثمة مفر ..

محمود : تلك التي دسستها في حقيبتك في احدى سفراتنا ..

سعيد : رحت انظر بذهول .. وفجأة انفتحت امامي نافذة على عالم جديد رائع .. كل ما فيه جميل .. الطبيعة المنتشية .. الجداول المنسابة بهدوء .. الاشجار التي تحركها نسمات الخريف الحالمة .. والغواني الحسان اللواتي يعزفن الحانا تنسي الانسان في لحظة ، كل عذابه والمه وقلقه .. وتهبه ، في لحظة، كل طيبات الحياة ..(بعض مقاطع من رباعيات الخيام تنبعث من بعيد) وقلت في نفسي ها قد وجدت الطريق ..

سالم : كما كان يصوره لك عمر الخيام ؟

محمود : (ضاحكا) بالضبط ! لولا انه اضاف على الخيام التبول في الشوراع والتقيّؤ على قارعة الطريق ..

سالم : ومن أدراك ان الخيام لم يكن يتقيأ ويبول قبل ان يصل بيته كل يوم ؟

خالد : (وهو في حالة اعياء شديد) لم تكن هناك شوارع ولا ازقة .. كانت هنالك الطبيعة (يقوم باشارات مضحكة) الطبيعة باشجارها وانهارها .. وكان الخيام اكثر قدسية من ان يتقيأ او يبول (يضحك ويتهالك على الكرسي) ..

سعيد : (مشيرا الى الكأس) المهم ان يجد الانسان الممزق فيك مخلصه من الاسى والعذاب!! مرة يا اخوتي ، لكنها طيبة ، مرة لكنها مثل شبابي ياصحابي ...

خالد : (يغني باعياء وهو يشعل سيكارة) الدنيا سيكارة وكأس ..

سعيد : (مستمرا في حواره مع الكأس) ربما لا ترون انتم فيها ما أراه انا ... تشربونها لكي تهربوا من مشاغلكم وحياتكم الفارغة التي لا يحركها الم ولا تفتح وعيها على الوجود قسوة .. تهربون اليها فلا تزيدكم إلا فراغا .. اما انا ..

محمود : فتشربها لكي تزيدك عمقا وادراكا ..

سالم : (بعصبية) بقدر ما تزيدنا سطحية وفراغا ..

سعيد : لقد تفتح وعيي على مأساة الانسان الوحيد الذي تجرفه حريته الزائفة الى اللامكان .. الى حيث لا يأخذ بيده احد ولا تشده قيمة الى الملكوت .. ايها الاصدقاء.. لقد جئت الى هنا هاربا من وحدتي وفراغي ، ولكن يؤسفني ان اقول لكم انني لم اجد كل ما كنت ابغيه .. (يبعد الكأس بيأس وعصبية) ..

محمود : يكفيها انها تنسيك .. النسيان يا سعيد هو الدواء الحقيقي لآلامنا ..

سعيد : لا فائدة .. فخيبة الامل بسعادة كاملة .. والاعتقاد المخيف بحياة ملؤها الحقد والقلق .. والتناقض الابدي بين الالم والسعادة ، بين الشك والاطمئنان، بين التشتت والائتمان الذاتي .. كل هذه المآسي لا احس بها الان ولكن ربما اتت كلها دفعة واحدة بعد لحظة او بعد ايام بمجرد ان اعود الى وعيي .. اذ لا ارادة لي .. ثمة خوف يتفجر في اعماقي عن عدم الثقة، عن العبث ، عن التناقض المخيف بيني وبين الخارج .. عن الحقد اللانهائي ...

سالم : (باعياء الى سعيد) لقد اتهمتنا قبل قليل بالسطحية والفراغ ... حسنا .. سأثبت لك (يلتفت اليهم) ولكم انتم ايضا .. عكس ما قاله .. سأثير موضوعا –علميا – يستحق النقاش ، وهو المقارنة بين ابي نواس والخيام ..

خالد : (يحاول ان يتكلم فيلطمه سالم ويسكته ...)

سالم : انا اعتقد ان بعضكم سينتمي لابي نواس واخرين للخيام .. ولكن ارجو الا يجركم اختلاف الرأي الى الخصام.

سعيد : وليكن شعارنا .. الخزي والعار لابي نواس الدجال ، والمجد والخلود للقديس عمر الخيام ..

محمود : هذا تحيز .. هذا ظلم .. فما الذي جناه ابو نواس لكي تصبوا عليه اللعنات ..؟

خالد : اما انا فسأتخذ موقف اللامنتمي لا إلى هذا ولا إلى ذاك .. ولم تنتمي إلى احدهما وباستطاعة كل منا ان يكون ابا نواس آخر أو خيامًا جديدا ؟ (يضحك) ولكن (مقلدا سعيد) يؤسفني ان اقول لكم انني لم اقرأ في حياتي بيتا واحدا لاي منهما (ضحك جماعي) ...

ابراهيم : (كان ساهما طيلة الفترة السابقة .. ينهض فجأة حاملا كأسه يتجه الى النافذة مديرا ظهره للآخرين) .. لقد سئمت هذا العبث وغدوت لا اشعر الا بالقرف .. وانا امارسه في اصيل كل يوم .. في الايام الاولى .. كانت الخمر والنساء والسخرية والاغراق اللا أبالي تطير بنا الى مكان بعيد ... كنا ننسى فيه ما نعانيه من حيرة وعذاب .. واليوم .. اليوم تذكرت (تدمع عيناه) ..

سالم : لا تقضي على سعادتنا بافكارك السوداء ..

محمود : وان عدت الى ذلك ، فاقسم بالله اني سأنقطع عن المجيء معكم .. لاني

اعلم يقينا انك لم تعد اهلا لليالي الحب والنشوة والاحلام ... ارجوك ..

سعيد : دعوه يتكلم .. ولكن .. ماذا ؟ (يرفع رأسه إلى اعلى) لا .. لا.. لم أخطىء .. كان علي ان افعل ذلك .. ولو وقف في طريقي مرة اخرى فسأقتله .. سأقتله (يضحك) لا .. لا .. لم اكن مخطئا ... ارجو ان تتكلم .. ولكن مهلا ... اذا كان عندك ما يحزن ويجلل امسياتنا بالسواد فارجوك ان تكف عن الكلام ..

ابراهيم : (ناظرا الى البعيد) ليس عندي ما يحزن .. ولكن عندي ما يفتت الاكباد .. لقد تذكرت الان ، (يرتجف صوته وتتحرك يده القابضة على الكأس بعصبية) تذكرته هو .. هو بالذات بايمانه وكبريائه .. برقته وقسوته ... اوه لقد تذكرته ...

سالم : ارجوك كف عن هذا ...

ابراهيم : كان ينتظرني في اصيل كل يوم ، في مثل هذه الساعات بالذات .. كان يطرق علي الباب ثم يتراجع بضع خطوات .. ويقف هناك ينتظرني ..

سعيد : عدت اليه من جديد ... لا تحرق اعصابك بهذا ..

ابراهيم : وعندما اغادر البيت اجده واقفا هناك .. نفس المكان .. نفس الابتسامة العذبة .. نفس النظرات العميقة بعيدة الاغوار .. لم اكن اعرف آنذاك انه ما كان لينظر الى الاشياء الملموسة القريبة منه .. الاصوات .. والمرئيات .. وما يلمس باليد ويداس بالاقدام .. وانه انما كان ينظر الى البعيد ... لم اكن اعرف ..

سعيد : (مع نفسه) من المعرفة ما يحيل حياة الانسان الى جحيم ... ليتنا خلقنا بعيد عن حدود هذا العالم المتنافض القاسي .. وعشنا في محيط المحسوس نأكل كما تأكل الانعام .. بعيدين عن اشواق لا طائل تحتها ، وعذاب لا نهاية له ، وجحيم لا مهرب منه الا اليه ..

ابراهيم : كان يضع يده على كتفي برفق قائلا لي لنتخط قليلا يا ابراهيم ، فلا الذ الي من المسير مع صديق مثلك في اللحظة التي تبدأ فيها الشمس تلقي النظرة الاخيرة وتعلن استسلامها اليائس للظلام ..

خالد : والقمر ؟ الم يكن يعرف ان القمر سيعقب الشمس وانه لا ظلام ؟

ابراهيم : لم يكن يؤمن بالظلام .. كان يعيش بالنور .. ولا يرى الا النور .. ولا يحث خطاه الا اليه .. ولكن (تخنقه العبرات) ..

سعيد : ولكن ماذا ..؟؟

إبراهيم : كان يقول لي انه لا يجد أي متعة في هذا الصفاء الذي تحقق به بعد اجهاد نفسي قاسٍ وصراع روحي مرير .. بل على العكس كثيرا ما كان يقول لي انني اتعذب يا ابراهيم ، لان الذي يعيش تجربتي لا يستطيع ان يهنأ ويسعد واخوانه يتخبطون في الظلمات .. كان عليه ان ينزل اليهم من عليائه .. أن يعيش بينهم في الطرقات المخيفة ، ان يعرض نفسه للاذى والخوف .. كي يأخذ بايديهم الى شاطىء الحياة الحقيقية .. حيث يعرف الانسان لماذا امر الله ملائكته ان يسجدوا لابيه !!

سعيد : (مع نفسه) يسجدون لابيه ؟ .. ما معنى هذا ؟ ان يصفعه ؟ ان يمرغ وجهه بالتراب ؟ .. ان يتلهى بوضع رأسه بين قدميه ؟ (يصرخ) لا .. لم اكن على خطأ .. ولئن ظل يطاردني فسأقتله .. اقسم اني سأقتله !!

ابراهيم : كنا نسير ببطء .. اتكلم حينا فيصغي الي بكل كيانه .. ويتكلم هو حينا فلا ادرك ما يقول .. كان في صوته عذوبة وعمق .. وحنان .. كان ينبعث من اعماقه كلحن متوافق لا تناقض فيه ولا نشوز .. ينقلك في لحظة الى عالم جديد ، بعيدا عن كل ما هو مألوف من حياتنا اليومية المملة التي قضى فيها الحس الثقيل على رفرفات الروح ..

محمود : وماذا نفعل نحن يا ابراهيم ؟ الم نجمع على احتقار هذه الحياة التي اجمع الاخرون على تقديس ما فيها من طعام وشراب ونوم وبحث عن المال ؟ الم نجمع على ذلك ، ونأت الى هنا هاربين من اشباح السأم والحس ، باحثين عن كوة ننطلق منها الى عالم الروح الذي نرنو اليه .. وانا وجدنا في الخمر ضالتنا المنشودة ؟ (يضحك) ..

سالم : لا تسخر يا محمود ، الا ترى في عينيه بريقا غير مألوف ؟ لا تسخر والا حطم الكأس التي ترتجف في يديه على رأسك ..

خالد : وماذا عن رفيقك بعد ؟ الم يكن يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ؟

ابراهيم : (مسترسلا) ما كان ليطير هكذا في الخيال كما تطيرون انتم .. حتى اذا كلت اجنحتكم سقطتم فجأة وتمرغتم في التراب .. كان قد ثبت قدميه في الارض .. وكان راسخا كالجبال .. ما كان يحلو له ان يطير واخوانه يتقلبون في الظلمات ، كان يقول لي دائما .. من هنا .. من هذه الارض ينطلق الانسان الى السماء .. وكان يردد بهدوء عميق (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها

نخرجكم تارة اخرى)..

سعيد : والى اين نخرج بعد ان يأكلنا الدود ونغدو رفاتا وعظاما ؟

ابراهيم : (مسترسلا) ومرة ونحن نترك الشارع الاخير في المدينة ونبدأ المسير على رمال صحراء ممتدة بلا حدود ، قال لي انني اريد ان اسافر يا ابراهيم ..

خالد : (بسخرية) يستشيرك حتى سفره ؟

ابراهيم : (وهو يحملق في خالد بنظرات راعبة) قلت له الى اين ؟ لقد سدت كل النوافذ واقفلت كل الابواب .. قال إلى ربي .. انه يدعوني .. طفرت دمعتان من عينيه ، انحدرتا على خديه ، واخذ يبكي بصمت ..

محمود : لا تحرق اعصابك هكذا .. تعال اجلس بيننا .. واشرب الكأس التي ترتجف في يديك فستنسيك ..

خالد : اراهنك على ان بامكاني ان انسيه ..

ابراهيم : قلت له اعن ضعف تبكي ؟؟ فابتسم من خلال الدموع والتمعت عيناه ببريق عجيب وقال اعرفت عني الضعف يوما ؟ .. قلت لا .. قال أو عرفت عني الهروب ؟ قلت أبدا .. قال وستعرف كذلك الطريق الذي سأسلكه في رحيلي الى الله .. (يبكي) ..

سعيد : هذا يكفي يا ابراهيم .. ما جئنا الى هنا لنحطم انفسنا ونجتر ذكرياتنا المريرة (يلتفت الى الاخرين) اخرجوه من كآبته واعيدوه الى مجرى الخيال الحالم اللذيذ قبل ان يتحطم ..

سالم : ابراهيم ..! (يزداد بكاء)..

محمود : (مبتسما) اشرب ما في يديك حتى الثمالة .. وسترى كيف ستنسيك الخمر احزانك وتعيدك الينا ..

سعيد : ابراهيم .. انا لم اعد احتمل هذا .. ارجوك ..

ابراهيم : (من خلال بكائه بصوت اكثر ارتفاعا) اتعرفون انه حقق ما صمم عليه .. ورحل ..

خالد : الى اين ؟

ابراهيم : الى الله .. ولكن ..

سعيد : ولكن ماذا ؟

ابراهيم : لم يرحل عن ضعف وما هرب .. ولكنه حمل سلاحه وذهب الى هناك .. ومن اعماق ليل رهيب قرر ان يرحل الى ربه ..

خالد : وهل عاد .. ام لا زال هناك ..

ابراهيم : (يصرخ من خلال بكائه) لقد استشهد .. ها انذا جئتك يا أخي .. ولتطاردني اللعنة ان لم آت اليك هذا اليوم .. هذا اليوم بالذات .. لاطرق عليك باب بيتك في السماء .. (يرمي كأسه بقوة الى الارض فيسمع صوت تكسرها .. ثم يسرع الى الباب ويخرج ضاربا اياه بعنف ...)

سعيد : دائما .. دائما .. دائما المتناقضات .. دائما التارجح بين النعيم والجحيم ، ودائما التمزق والضياع .. وانا اشبه بالهارب الذي لا يلوي على شيء .. (تسمع ضجة في الخارج .. اصوات بعيدة مختلطة) (الجميع ينصتون الى مصدر الصوت وينظر احدهم الى الاخر)

محمود : ؟

خالد : (بلا ابالية) حادثة موت ..

سالم : ولم لا تقول حفلة عرس ؟ ما هذا التشاؤم ؟

خالد : (باعياء) قلت لكم حادثة موت وكفى .. اوه ..

سالم : اما انا فسأبقى مصرا على ان الضجيج الذي يطرق اسماعكم من البعيد ، ان هو الا بشير فرحة كبرى (يلتفت الى خالد) ولن يستطيع تشاؤمك ان يغطي على حدسي ..

خالد : ولم تخاف الموت ؟ افاتك شيء من نعيم الحياة ؟! فمرحبا به اذا كان خاتمة مطاف لرحلة سعيدة في عالم المتعة والجمال .. (تزداد شدة الضجيج)

محمود : وما يجدي النقاش ..؟ عندما يقترب حدث ما من الانسان .. سواء ما يدعو الى الضحك او الى البكاء ، فان عليه ان يستعد لاستقباله راضيا مطمئنا .. لا ان يضيع الفرصة .. فرصة الانتظار المليئة بقلق الشوق .. يضيعها بالجدال !!

سالم : هكذا تحيلك الخمر انسانا قدريا مستسلما .. وفي لحظات صحوك لا تكف لحظة عن الدعوة الى التمرد على كل القيم وكل الاشياء ..

محمود : هل تستطيع قوة في الارض ان تجبرني على اتخاذ موقف محدد ؟ انا حر .. وحريتي تلزمني ان اكون متمردا في حالة صحوي .. مستسلما في حالة ذهابي بنشوة الخمر بعيدا على زورق مسحور في مجرى الخيال الجميل .. ليس ثمة صخور في طريقي فعلام احمل فأسي ؟

سعيد : (مع نفسه) عندما احترقت امي كان الجو غائما شاحبا .. كان كالانسان

عندما يضيع احيانا في لجة السأم .. في الفراغ .. (يزداد الضجيج .. صراخ ..)

سعيد : (مستمرا) واليوم تنتشر الغيوم في اعماق السماء .. ويغدو الجو شاحبا كئيبا .. اما انا فاحس باني اضيع مرة اخرى .. (يتهالك على كرسيه) ..

خالد : ليست سوى حادثة موت .. اراهنكم على ذلك ..

سالم : اما انا فسأغمض عيني .. وحتى لو تحقق ما تقول ، فسأتصور ان ما حدث ليس موتا وانما هو عرس او ميلاد!!

سعيد : (مع نفسه) الموت والحياة .. والفرح والحزن .. الضحك والبكاء .. كلها في نهاية المطاف شيء واحد .. هو التناقض .. التناقض الذي يطحننا في اعماقة فنضيع .. يقولون ان الطفل عندما يولد .. يولد وهو يبكي .. لم ؟ لا ريب انه ينظر بايحائه الفطري الى دورة الحياة .. فيختصرها بلحظة ويرى نفسه خارجا من بطن امه داخلا بطن الارض فيبكي هذه الفرصة التي انتزعت منه انتزاعا دون اختيار !!

خالد : (بسخرية) اما فيكم مؤمن .. اما فيكم من يعزينا بان هذه الحياة بداية الطريق الى حياة ابدية لا موت فيها ولا فناء .. اتقوا الله ايها البائسون ولا تقنطوا من روحه (يضحك ويتهالك على الكرسي). (يزداد الصراخ)

سعيد : اوه .. لم اعد احتمل هذه الاصوات .. لم اعد احتمل .. لقد انتزعتني من عالم عذابي الهادىء الى قسوة الحس وثقله وجفافه .. (ينهض ويقفل النافذة .. ثم يلتفت الى اصدقائه).

سعيد : اعتقد ان الوقت قد حان لاطلعكم على اللوحة الاخيرة التي رسمتها وانا اتخبط في اعماق اليأس .. ان بها روحا خاصة تميزها عن جميع لوحاتي السابقة .. لقد صهرت بها كآبتي وعذابي ..

محمود : (ناهضا) في الفن اجد عزائي الحقيقي .. احيانا .. يتملكني شعور قاسٍ باني اغذ الخطى في صحراء لا نهائية من السأم والخواء .. وفجأة تصدح في اذني مقطوعة موسيقية او تعرض على لوحة رائعة فتنسياني الصحراء ..

سالم : (ينهض ويقول لسعيد) لقد تحدثت كثيرا عن اللوحة الاخيرة .. هيا ارنا اياها ...

(يختفي محمود وسالم داخل المرسم)

خالد : (ينهض بتثاقل) كل ما ارجوه ان لا ارى الشياطين تمرح في جنباتها !!

سعيد : الشياطين ! .. ثق انك لم تجد فيها شيطانا واحدا .. لانها كما قلت تختلف

عن كل ما سبقها من اعمال ... ولكن ..

خالد : ماذا إذن ؟

سعيد : لا انكر ان ما دفعني الى انجازها هي روح شيطانية خالصة كانت توحي الي من وراء الستار (يضحك) (يختفي خالد داخل المرسم ... ويتجه سعيد الى الضوء فيطفئه ثم يتحرك صوب باب المرسم .. فيدق جرس التلفون ... يتجه اليه بتثاقل ولا ابالية ويرفع السماعة ...)

سعيد : الو .. نعم .. الو ..؟

الصوت : .....

سعيد : ماذا ؟ (يضطرب صوته)

الصوت : .....

سعيد : لا ... متى ؟

الصوت : .....

سعيد : قبل دقائق ؟ قبل دقائق فقط ؟

الصوت : .....

سعيد : (بانهيار) قرب حانوته ؟ (يضع السماعة بتهالك .. وفي الخارج تزداد ضربات الرعد قوة والجو اكفهرارا .. يتقدم بخطى متثاقلة إلى النافذة فيفتحها ويقف هناك بذهول معلقا بصره بالسماء .. ثم ما يلبث ان يغيب بعد ان يتقدم بضع خطوات صوب الباب) ...

المشهد الثالث

المكان : منظر طبيعي .. تلال .. كهوف مظلمة .. نتوءات صخرية .. توحي بالرعب والقسوة .. ثمة فوهة في نهاية منحدر يقبع في اخر المسرح تنبعث عنها حمم من اللهب .. اصوات مخيفة مرعبة ..

الوقت : .....

سعيد : (يقف امام احد الجدران باضطراب واعياء .. بيده فرشاة ملطخة يضرب بها بعنف على الجدار) ابليس ..!! اقترب قليلاً .. اقترب .. سارسمك بلا قرنين كما يحلو للكثيرين .. لعلها اهانة منهم لك .. ان يصوروك كثور بشع .. خلق ليناطح الاخرين ويمزق افئدتهم ... بلا قرون .. اتسمع ؟ (يضحك) شابا جميلا كوجه حسناء ليلة عرسها ، ابعجيك هذا ؟ ايرضي كبرياءك ؟ ما دمت قد وهبني اللذة والمتعة والجمال ؟ فلم ابخس فضلك ؟ اللذة والجمال ؟ ثور بلا قرون .. عفوا شاب جميل يا ابليس .. هدية عيد ميلادي اليك !! (يستمر في ضرباته بجنون) ...

الشيطان (ماجن) : (خارجا من الفوهة النارية ، ضاحكا) مرة واحدة .. مرة واحدة فقط تحيون .. ثم يأتي من يقف في طريقكم ليذيقكم الموت قبل الاوان .. فباسم الايمان يريدون ان يقتلوكم .. ان يدفنوكم في التراب ..

الشيطان (صفير) : (خارجا من الفوهة النارية) واذا خسرتم الحياة .. الحياة الوحيدة التي كتب لكم ان تحيوها فلن تجدوا بعدها أي شيء سوى الظلام ..

الشيطان (مارد) : (خارجا من الفوهة) فاشربوا كأسها حتى الثمالة .. واعرفوا من اين تؤكل الكتف ولا يخدعنكم مشعوذ ولا دجّال !!

صفير : لقد جربنا الكثير .. لم يكن هناك في حسابنا زمن .. فمنذ ان خلقنا الله .. عفواً ، فمنذ ان وجدنا والى ان تقوم الساعة .. اوه .. اعني حتى الساعة التي ينتهي فيها كل وجود .. لم يرهبنا موت .. ولم تجرفنا قوة الى الحافة التي نهوي بعدها الى عالم الفناء ... ومع هذا لم تكن تخدعنا دعوات الخلود .. لقد اعتصرنا كل ثمرات الحياة وذقنا كل الطيبات

ودسنا باقدامنا على كل المحرمات ..

مارد : ولم تدعوها محرمات ؟ ليس ثمة محرمات في هذا الكون .. كل شيء مباح .. اية قوة وهمية تستطيع ان تفرض نفسها مهيمنا يضع في طريقنا العوائق والاغلال ؟

ماجن : ان اعجبتني تفاحة فباسم ابينا ابليس لاقطفنها ولآكلنها ، حتى ولو وقفت في طريقي كل قوى الكون .. وجدنا لنلتذ .. خلقنا لنستمتع .. نحن اللذة .. وليسقط كل ما زيفوا من حدود ومحرمات ..

سعيد : والله ؟ الله الذي خلقني وخلقكم ؟

الرئيس : (بصوت مرتفع) لقد عصاه ابونا ابليس فاحرى بالبنين ان يتبعوا الاباء ...

سعيد : (بتوسل وانهيار) ولم دفعتموني الى عصيان ابي ؟ اما كان اجدر بي ان اتبعه ؟ قولوا لي بحق ابيكم ابليس لم اغريتموني بأبي ؟

الرئيس : ما كان ابوك سوى وهم من الاوهام .. كان دجّالاً اراد ان يدفن شبابك ويصدك عن مجرى الحياة اللذيذ ..

سعيد : اما كان الاحسن لو هربت منه وانحدرت في مجرى حياتي .. مع الكؤوس والغواني، دون ان اضطر الى صفعه واهانته ..؟

الرئيس : لو لم تصفعه لظل يطاردك بجسده في النهار ، وشبحه في الليل .. يطاردك وانت تهرب منه .. فلا تعرف طعما للذة ولا حقيقة لسعادة .. كنت ستراه امامك وانت تشرب الكؤوس فيحليها الى علقم .. وكنت ستتعثر بشبحه وانت تحتضن الحسان فيخرجك ، كصوت حاد مزعج ، من خيالاتك واحلامك .. كان من الضروري ان تحدد موقفك منه بقوة .. ووضوح .. لكي تغدو حرا في ان تشكل مصيرك بعيدا عن اكاذيب جيل من المخرفين ، بعيدا عن لعنتهم واغلالهم ..

ماجن : مرة واحدة .. مرة واحدة .. تحيون .. ثم يأتي هؤلاء ليصرخوا في وجوهكم وليعكروا بالاوحال مجرى حياتكم .. وليدوسوا باقدامهم الكليلة زهرات شبابكم .. مرة واحدة .. مرة واحدة تحيون ..

سعيد : فبحق ابيكم ابليس اذاً .. قولوا لي لم اتخذتم من ابيكم قدوة ودعوتموني لعصيان ابي ؟

الرئيس : ابونا دعانا الى الجنة .. واباؤكم يدعونكم الى النار ..

سعيد : هل انا مجنون .. ام ان الحقائق غيرت مجراها ؟ ام انكم تلبسون عليّ الحق بالباطل لأخضع لكم ؟

الرئيس : بل هو العالم الذي لا يعرف حقيقته الا من حطم كل الحواجز .. المحرمات .. التقاليد .. الاعراف .. وغدا حراً لا يلتزم بقيد ..

سعيد : اذاً لماذا اصطلحوا في عالمنا بكلمة (الجنة) على المصير الذي عمل من اجله آبائي .. (والجحيم) على المصير الذي ينتظرني وكل الذين يتبعون خطاكم ؟

الرئيس : نحن لا نملك قوة المنطق وثبات الحقيقة ولكنا نملك قوة اللذة وجبروت المتعة ودهاء الاغراء ..

سعيد : بهذا دفعتم آدم الى تخطي العلامة الاولى التي وضعها الله في طريق الانسان ..

الرئيس : وبهذا دفعنا وسندفع كل الاجيال الى تخطي كل ما وضعه انبياؤهم من علامات على الطريق ..

ماجن : (ساخراً) الا من رحم ربك !!

سعيد : وانا .. اذا اردت ان اعصيكم .. هل املك وسيلة العصيان ..

صفير : كلا ..

سعيد : لماذا ؟

الرئيس : لانك اذا اردت ان تصلي ركعة وضعنا في طريقك الف فتاة .. وان اردت ان تصوم يوماً افطرناك على مائة كأس من معتق النبيذ !!

سعيد : واذا كان لي من الارادة ما استطيع ان اقهر به اغراءكم .. فاذا وضعتم في طريقي الحسان اشحت بوجهي عنهن ، وان عرضتم علي كؤوس النبيذ حطمتها تحت قدمي؟

ماجن : لن تستطيع ..

سعيد : الم يستطع آخرون .. تحدوكم .. فعصمهم الله منكم .. فساروا يحثون الخطا اليه عازمين على ان يرفعوا الفؤوس .. دون كلل .. ليسحقوا بها رؤوس افاعي الشهوات .. ويزيحوا الاشواك من الطريق ؟

صفير : لن تستطيع !!

سعيد : الم يستطع آخرون .. جاهدوا في ساحات النفس وطاردوكم في كهوفها ومنحنياتها واشعاوا مصابيح الايمان في اروقتها المظلمة فلم يبق لكم

فيها مكان ووليتم مذعورين ؟

مارد : لن تستطيع ..

سعيد : الم يستطع آخرون .. عرضتم في طريقهم لذات الارض كلها .. واغراءات الارض كلها .. وزينة الحياة الدنيا كلها .. فسخروا من عروضكم .. واشاحوا ابصارهم عن اغراءاتكم .. وداسوا باقدامهم الراسخة على كل الزينات ؟

ماجن : لن تستطيع ..

سعيد : الم يستطع آخرون .. اعلنوا الحرب عليكم منذ تفتح وعيهم على حقيقة الايمان ، وروعة صراطه المستقيم .. وابدية المصير العظيم الذي ينتظر السائرين بخطى لا يزعزعها الشيطان ؟

صفير : لن تستطيع ..

سعد : صارعوكم فصرعوكم ، وقاتلوكم فقتلوكم .. فبرز اتباعكم لهم من كل زاوية وفي كل منعطف وعلى رأس كل طريق .. يدعونهم بالكؤوس والاجساد .. ويرجونهم العفو عما مضى من قتال .. وان يلقوا السلاح .. فليست القضية قضية معركة بين خير وشر وانما هي قضية حياة واحدة يحيونها فلا يسفحوها تحت اقدام الاوهام .. فسخروا منكم ومضوا في الطريق ..؟!

ماجن : أي نعم .. مرة واحدة .. مرة واحدة فقط تحيون ..

سعيد : وعندما كلّ سلاحكم لجأتم الى سلاح الايهام والتشكيك ، ولكن دحضوا بعمق عقيدتهم سخف ادعاءاتكم ، وسحقوا كل سلاح رفعتموه بوجوههم ، لان الذي يهيبهم العون والقوة ويشد من عزمهم انما هو الله ..

مارد : قلنا لك انك لن تستطيع .. وها انت تتكلم بلسان الآخرين .. ولو كنت قد ربحت المعركة معنا لتكلمت بلسانك !!

صفير : ولكنك ما زلت بطلاً .. لقد سحقت كل الاعراف والتقاليد .. وحطمت كل الاغلال وانطلقت الى عالم الحرية الواسع الذي لا تحده حدود .. عالم الشباب والربيع .. حيث تشترك المباهج والملذات في مهرجان ، صاخب لا يعكره ايمان موهوم ولا تلطخه اقذار الاوهام .. مهرجان .. تتوافق موسيقاه باصوات القبل .. وقرع الكؤوس.

سعيد : آه .. انه عالم رائع .. ولكن ..؟

الرئيس : ولكن ماذا ؟

سعيد : ابي .. لقد صفعته .. ولا زال الصوت يرن في اذني كالنذير ..

الرئيس : لقد اجتزت كل العقبات .. ولم يبق امامك سوى العقبة الاخيرة .. ابوك .. صوت اجيال عاشت في الظلمة ورفعت في وجوهنا السلاح ، ودارت بيننا وبينها معركة طاحنة على كل الجبهات .. وكان الانتصار لا يستقر على طرف .. مرة لنا .. ومرة لهم .. حتى جئت انت .. انت الحر من كل قيد .. فالتزمناك لنصفع بك الاجيال الماضية ولنفتح بك صفحة جديدة في تاريخ الصراع بين آدم وابليس وها انتم تلقون السلاح وتتبعونا دونما قتال..

ماجن : والآن يحق لنا ان نعلنها بشرى لابينا ابليس .. لقد تحقق وعيده ، يوم عصى ربه ولم يسجد لآدم وهتف فبعزتك لاغوينهم أجمعين !!

سعيد : (بتخاذل) هذا صحيح .. وانا معكم .. لم ارفع سلاحاً بوجهكم في يوم من الايام .. لم ارد هذا من البدء .. لم أرده او اسعى اليه وانتم تهيئون لي لذة بعد لذة ونعيماً بعد نعيم ..

الرئيس : وسننقل لك عما قريب قطعة من الجنة الى الارض !!

سعيد : (مستمراً) واحياناً كانت تنتفض في اعماقي ثورة الايمان .. ويشع بريق الفطرة ليلقي اضواءه على طرقات حياتي المظلمة .. وكانت تتكشف لي فجأة الهاوية التي تنتظرني ، هاوية سحيقة بلا قرار. فكنت اصرخ لا .. لا اريد ان اغدو كالذي تتخطفه الطير او تهوى به الريح في مكان سحيق .. ولكنني دائماً وفي اللحظة الاخيرة كنت اجد احدكم (يشير بيده اليهم) واقفاً عند زاوية شارع أو في منعطف طريق ..

صفير : انك تجيد التصوير !!

ماجن : ويلصق بنا المفتريات !!

سعيد : وحق ابيكم ابليس كنت اراكم رأي العين .. يقف احدكم .. فيبتسم لي .. ثم يدعوني بيديه هاتفا برقة ملساء كجلد افعى !! (ضحك جماعي ...)

الرئيس : (صارخاً) كفى .. قلت لكم دعوه .. فانا الذي كنت ابعث باحدكم اليه كلما خطرت له خاطرة من ايمان ، او هتف في اعماقه نداء الفطرة .. دعوه ..

سعيد : وكنت احس فجأة بأن صرخة الايمان قد تلاشت وبأن انوار الفطرة قد انطفأت واني غدوت كالأعمى اتخبط في الطريق واتلهف على من ياخذ بيدي حتى ولو الى الجحيم!! فاجد نفسي اغذ الخطى الى الشيطان الذي

ينتظرني عند المنعطف ، فيضع يده على كتفي برفق ساخر ويأخذني الى مكان بعيد ..

ماجن : لم نجد في مخلوقات الله .. عفواً .. اعني موجودات الطبيعة اشد نكراناً للجميل من الانسان !! قل له يا مارد الى اين كنت تأخذه دائماً .. وماذا يقصد بذلك المكان البعيد ؟؟

الرئيس : قل له ولا تطل ، ولنستأنف الاستماع الى كل ما يقول لكي نزيل كل شك من قلبه ونهديه الى صراط مستقيم !! (ضحك جماعي)

الرئيس : (صارخاً) كفى (ويلتفت الى مارد) تكلم ..

مارد : لم يكن ذلك المكان البعيد سوى الحلم الكبير الذي سعيت لتحقيقه يوم كنت تتمزق وتعاني من مأساة العصر .. وتمنيت ان تهرب من عذابك الى الجنة التي رسمها (الخيام) لك .. الشعر والحب والخمر والغناء ..

ماجن : الحب العذري طبعاً .. (يضحك)

صفير : والخمر التي لا يعقبها تقيؤا او تبول (يضحك)

الرئيس : (صارخاً) لا تقاطعوه .. والا حطمت رؤوسكم.

مارد : وكنت انا مكلفاً (ينظر الى الرئيس بطرف خفي) ان آخذك في لحظات الحيرة والكلال .. اللحظات التي ينتفض فيها في اعماقك فجأة نداء الايمان الذي قتلناه (يلتفت الى رفاقه) ايها الرفاق اشهدوا معي امام الرئيس الموقر اني كنت انفذ المهمة الملقاة على عاتقي بكل امانة ، فكنت انقله في لحظة الى الجنة التي ضيعها المؤمنون ..

ماجن : اشهد ..

صفير : اشهد ..

سعيد : وانا اعترف لك (يلتفت) ولحضرة الرئيس الموقر بهذا الصنيع .. ولكن ثمة شيء واحد فقط .. اريدكم ان تجيبوني عليه والاّ ..

الرئيس : والاّ ماذا ؟

ماجن : انه يتهددنا ياسيادة الرئيس ..

صفير : اتبلغ به الجرأة الى هذا الحد ..؟

مارد : لا تتجنوا عليه .. انا اعرفه جيداّ .. انه اجبن من ان يتحداكم ..

سعيد : (مستمراً) والا قتلني تعذيب ضميري .. شيء واحد هو ابي .. فبحق ابيكم ابليس لو اخذتموني بعيداً عنه ، قبل أن اصفعه فيسقط تحت قدمي

يتخبط بين الذلة والرحمة ، داعيا ربه ان يرحمني (يصرخ) لو اخذتموني بعيدا عنه ..

الرئيس : (صارخاً) ماذا ؟ جبان .. اخرس .. صنعنا من اجلك الكثير .. وكنا نحس دائماً ان شيئاً واحداً فقط كان يشدك الى ضلال الاجيال الغابرة .. ورغم قوة ارادتك ، وطبيعتك الشاكّة الساخرة بكل ما اصطلح عليه اؤلئك من قيم لا رصيد لها في عالمنا .. فاننا كنا نخاف عليك ذلك الخيط الذي كان يحاول جهده ان يخرج بك عن الطريق ، وان يعود بك الى ظلمات القبور التي يسمونها تقوى وايمانا !!

سعيد : أي شيء ذلك الذي تعنيه ؟ أي خيط حاول شدّي إلى الظلمات ؟

الرئيس : قل له يا مارد ..

مارد : (متردداً) أ.. أ..

الرئيس : (يصرخ به) اجبه والا حطمت عنقك ..

مارد : ابوك ..

سعيد : اواه .. لقد قطعتم الخيط .. لقد قتلتموه اذاً .. يا للكارثة لقد مزقتموه ..

الرئيس : (لمارد) وما هو الطريق الذي اوحينا لك به كي تمزق ذلك الرباط ؟

مارد : أن يمرغ أبوته بالتراب .. ان يدوس عطفه تحت اقدامه .. ان يسكت نداءاته بالصراخ .. ان يتحداه بدعوة الشيطان ان يبصق في وجهه ويصفعه ..

سعيد : (بتهالك) اللعنة .. اللعنة (يصرخ) ايها الشياطين .. كفوا عن العبث قبل ان اتهاوى تحت اقدامكم ..

الرئيس : (ساخراً) مهلاً .. وستعلم عما قريب اننا لم نفعل ما فعلناه إلا من اجلك .. من اجلك انت وحدك !! ان مأساة العصر فرضت عليك ثقلها .. وكان عليك ان تهرب .. ان تفيء الى ظل ظليل .. لتبتعد عن لفحات سعيرها .. ولذع سياطها .. وانت تركض خائفاً مذعوراً .. كان ينتظرك في نهاية الطريق مصيران .. جنتنا بظلالها التي تنشد .. او جحيم ابيك بحره وسعيره ولظاه ..

مارد : وما كان سيقوله لك ابوك هو ان هذه الدنيا ليست شيئا بذاتها ولكنها بداية طريق طويل نهايته الآخرة ، وكان ذلك كفيلاً باغرائك .. ولكنه كان سينتهي بك الى الهجر ، هجر ملذات الدنيا ونعيمها .. وبالتالي يعيدك

من حيث لا تعلم الى الصحراء التي هربت منها خائفاً مذعوراً ..

صفير : كنت ارى بأم عيني هاتين شعار ابيك ان لا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور .. اليس كذلك ..؟

ماجن : اوه .. لقد ارهق اعصابي هذا النقاش ، ما لكم به وبأبيه ؟ لعنة ابليس عليه وعلى ابيه .. دعوه .. فأن خسرناه فقد ربحنا قبله الوف .. اوه (يلتفت الى صفير) ناولني كأساً لتعيدني الى عالم خيالي واحلامي

الرئيس : اخرس (يلتفت الى الآخرين) اخرجوه .. (حركة.....)

سعيد : (مع نفسه) لقد بحثت طويلاً ، حاملاً بين جنبي وجوداً ممزقاً ، وقلقاً يتمخض في اعماقي عن هدير مخيف ، وازدواجاً يحيلني الى مئات من الاشباح ضاعت بينهم حقيقة ذاتي .. بحثت طويلاً .. في كل طرقات الضلال .. وفي اعماق الشهوات .. وركضت خلف نداءات الشياطين .. فلم اجد ماكنت ابغيه .. ان اخلص من عذابي وضياعي .. ولكن دون جدوى .. واخيراً .. اخيراً اغروني بأبي .. فصفعته ومرغت ابوته بالتراب .. وحسناً فعلت فهي الخطوة الاخيرة في الطريق الطويل التي ركضت فيها منادياً حريتي وسعادتي .. وسأرى بعدها ما يكون ..

الرئيس : (من بعيد ، بعد ان تم اخراج مارد ..) سواء همست بما تتكلم او صرخت به فانا نعلم ما تقول !!

سعيد : وانا .. سواء لدي الهمس والصراخ .. لقد همست كثيراً وصرخت كثيراً .. اين اجد ذاتي ؟ ألا تدلوني ؟ ألا تعينوني ..؟

مارد : (لاهثاً) يا لنكرانه للجميل ..

صفير : (لاهثاً ايضاً) وقاحته جاوزت الحد ..

سعيد : لقد ركضت خلفكم طويلاً حتى كلت خطاي .. واستجبت لكم مرة بعد مرة دون ان اقبض الا على الريح !

الرئيس : والحب والشعر والخمر والغناء .؟

سعيد : وأخيراً (ينبعث صوت ابيه من اعماق المسرح لقد قتلتني يا سعيد فليرحمك الله) .. اوه ... (يتهالك على الجدار)

الرئيس : لم تقبض إلاّ على الريح ؟ والحب والشعر والخمر والغناء ؟

سعيد : (كما لو ينتبه فجأة ... ويقترب من الرئيس) لم يكن هنالك رباط علوي يشدها في وحدة متناسقة .. لم تكن هنالك قاعدة تنبعث من الاعماق

لترتكز عليها .. الحب والشعر والخمر والغناء .. اشياء مبعثرة لامبرر لها ولا هدف .. فالى أن اجد ذلك الرباط الذي يشدها ويحيلها حياة تبعث في الارض القفر الخصب والحركة .. الى ذلك الحين ، سيبقى الحب والشعر والخمر والغناء باطل الاباطيل وقبض الريح ..

الرئيس : لم تكن اول من عانى في طريقنا الحيرة والعذاب .. سبقك كثيرون وسيعقبك كثيرون .. وكلهم وجدو وسيجدون اخيراً ما كانوا يركضون اليه .. ان يرتموا في اعماق الشهوات مغرقين فيها كل عواطفهم الطائرة ومشاعرهم الغامضة .. عارفين اخيراً ان اشباع صرخات الجسد .. هو السعادة الحقيقية التي تتساقط تحت اقدامها كل سخافات الفكر والروح !!

سعيد : باطل الاباطيل وقبض الريح ..

الرئيس : لم تكن أول من عانى في طريقنا الحيرة والعذاب (يلتفت الى الشياطين) ايها الشياطين قصوا عليه طرفاً من مساعيكم لاخراج اوليائكم من الظلمات الى النور (يضحك) ..

سعيد : اقنعوني بأن هذا نور وذلك ظلام ودعوني اختار ..

الرئيس : قصوا عليه اقاصيص الظلام والنور ليختار .. (يجتمع الشياطين بعد ان كانوا قد اختفوا خلسة خلال المقاطع الاخيرة من الحوار .. ويتهامسون .. ومن ثم يختفون ثانية بينما يتقدم احدهم).

الشيطان : سيدي الرئيس .. اتسمح لي ان اتكلم ..

الرئيس : قل ما شئت ..

الشيطان : قبل عدة أعوام ، كلفت من قبلكم يا جلالة الرئيس بمتابعة مصير شاب في ربيع عمره (يلتفت الى سعيد) لا يقل حيوية عن ضيفنا .. سوى انه يمتلك ..

الرئيس : ماذا ؟

الشيطان : ارادة حديدية .. واعذرني يا سيادة الرئيس .. لقد قرر ان ينتزع نفسه من جحيم الارض ويخوض غمار تجربة ...

الرئيس : وكيف ؟

الشيطان : انتمى الى أولئك الذين لا سلطان لنا على مملكتهم ..

الرئيس : سلطاننا على كل احد .. ومنذ ان اعلن أبونا ابليس تحديه الأكبر ، صارخاً لاغوينهم اجمعين .. ونحن نحكم كل الممالك الانسانية .. اتسمع

ما اقول .. كل الممالك ..

الشيطان : لحظة واحدة يا جلالة الرئيس .. لقد غدا منتمياً .. وقلت في نفسي ما دام الرئيس قد وضع ثقته فيّ ، فلأكن عند حسن ظنه ، وانجز المهمة التي كلفت بها ازاء هذا الانسان ..

الرئيس : وماذا فعلت ؟

الشيطان : طاردته في كل مكان .. وقدمت له اشهى الثمرات .. ووضعت في طريقه شتى المغريات ..

الرئيس : لاريب انك اوقعته في شباكك اخيراً ..؟

الشيطان : كان يشيح ببصره عنها جميعاً .. كان يدوس عليها بخطواته المكينة في طريقه الى القمة .. وكأنه كان يصيخ السمع لنداء كان يستحثه على المسير .. حاولت ان اعرف مصدر النداء فلم استطع ، الا انني رحت اقلب في اوراق الشاب وسجل حياته ، فعثرت خلالها على صفحتين أو ثلاث لفتت انتباهي .. كانت تشير الى ان ثمة علاقة عميقة الجذور كانت قد نشأت يوماً ، بينه وبين احد اصدقائه ..(يخرج ملفه ويقلب اورقه) ..

الرئيس : (نافد الصبر) لم اطلب منك ان تقص علينا تفاصيل حياته وعلاقاته .. ان ما اريده هو ان تخبرنا كيف اسقطته .. كيف ادخلته حظيرتنا ؟!

الشيطان : مهلاً ياسيادة الرئيس ، ان هذه العلاقة بالذات اوضحت لي الكثير ، اذ سرعان ما ادركت ان صديقه هذا لم يخضع يوماً لقيمنا او اهدافنا وانه كان يملك تأثيراً عجيباً على صاحبنا .. (حركة ضوئية ، يبدو بعدها ابراهيم وهو يسير جنباً الى جنب صديقه في عراء مكشوف – بعد ان يختفي الشيطان – يتكلم بحماس ، وابراهيم مطرق ، مأخوذ بكلماته ..)

الصديق : انني اتعذب يا ايراهيم لان الذي يعيش تجربتي لا يستطيع ان يهنأ ويسعد، واخوانه يتخبطون في الظلمات .. ان علي ان انزل اليهم ، ان اعيش بينهم في الطرقات المخيفة .. ان اعرض نفسي للأذى والخوف .. كي اخذ بأيديهم الى شاطيء الحياة والحقيقة ، حيث يعرف الانسان لماذا امر الله ملائكته ان يسجدوا لابيه ..

ابراهيم : ولكني خائف عليك .. انني رغم سقوطي وتمرغي في الطين .. احسّ ، من وراء السقوط والضباب ، انك النور الوحيد الذي يتسرب الى حياتي ،

وينشر اضواءه السريعة الخاطفة على طريق الاطمئنان الوحيد الذي تكاد التواءات حياتي الراهنة ان تبتلعه كالافاعي .. تحصن بعليائك وابق هناك .. مناراً يلجأ اليه التائهون حينما يتعبهم الاضطراب .. ابق في سمائك لانك اذا نزلت قتلوك .. لاتتورط في النزول ، واترك الارض للديدان البشرية التي تعيش على الضحايا ، وللعلق الادمي الذي يمتص دماء بني قومه وعشيرته ، كما تلتهم الاسماك الاسماك ... اتوسل اليك ان تبقى في سمائك !!

الصديق : من هذه الارض ينطلق الانسان الى السماء .. وانني اريد ان اسافر يا ابراهيم ..

ابراهيم : الى اين ؟! لقد سدت سائر النوافذ ، واوصدت كل الابواب ..

الصديق : الى ربي .. انه يدعوني .. (تدمع عيناه)

ابراهيم : هوّن عليك

الصديق : (يبتسم) اعرفت عني الضعف يوماً ؟

ابراهيم : كلا !!

الصديق : اعرفت عني الهروب ؟

ابراهيم : أبدا !!

الصديق : وستعرف كذلك الطريق الذي سأسلكه في رحيلي .. (حركة ضوئية .. يختفي الاثنان .. ويظهر الشيطان وهو يقلب ملفّه .. الرئيس وسعيد يظهران في ماكنهما ..)

الشيطان : ولقد سلك فعلاً الطريق الصعب .. الطريق الذي ظل مستعصياً علينا آلاف السنين .. الطريق الذي بذلنا كل طاقاتنا وامكاناتنا الخارقة كي نقتحمه ، وننحرف بالسائرين عبره الى طريق اكثر التواءات وسهولة ويسرا .. ولقد خابت محاولاتنا جميعاً وهل لنا ان نقتحم طريقاً يقف المؤمنون على مشارفه يدفعون عنه بارواحهم ودمائهم ؟! هيهات .. (حركة ضوئية .. وفي مكان ما في المسرح يبدو صديق ابراهيم معلقاً على احد المشانق ، يتأرجح جسده في الهواء ، بينما يمتد خلفه طريق تغمره الاضواء .. ثم تعود الانارة لكي توجه صوب الشيطان) ..

الشيطان : (يطوي الملف ، ويضعه في محفظته) لم يكن يهمني هذا كله .. كل ما كان يهمني هو ما كلفت به من ان اصد ابراهيم عن محاولته للتخلص

من عبق الطين الذي كان يتمرغ في لذائذه ومتعه .. هو ان اقطع الخيط الذي كان يشده الى صديقه .. ان انسيه ، بالخمر والاغراء ، ذكرياته معه .. ان اعمي بصره بالوهج عن رؤية النور الذي كانت تبعثه في وجدانه جثة صديقه المتأرجحة على تخوم الطريق المستقيم !! ولكن شد ما احزنني تشبث ابراهيم هذا ، وحرصه العجيب على ان تبقى عيناه مركزتين على الجثة وعلى الطريق !!

الرئيس : (باشارة ذات مغزى) انتقل الى النتيجة .. دون ان تضيع وقتنا بالتفاصيل .. ان نهاية تجربتك معه هي التي تهمنا ..

الشيطان : (دون ان يلتفت الى الرئيس) وفي احد الايام طفح الكأس ، ولم يعد بمقدوري ان امنع وقوع الكارثة !! لقد تفجرت الذكرى ناراً في وجدان ابراهيم. فحطم الكأس التي كانت ترتجف بيده ، وانطلق الى مصدر النداء لا يلوي على شيء .. وقلت سأدعه حينا من الزمن ثم اعود اليه بعد ان ينتقل زمام المبادرة الي لكي اسقطه من جديد .. ولكن تشبثه .. واصراره ..

الرئيس : لعلك تراجعت !!

الشيطان : كاد اليأس ان يستحوذ علي .. فرحت اشجع نفسي واذكرها بالمنجزات العظيمة التي حققتها طوال اجيال مضت .. وكيف تمكنت اخيراً من اسقاط الكثيرين من عليائهم ..

سعيد : (بسخرية ..) وهل اسقطته اخيراً .. ذلك الذي انتمي الى المملكة التي لا سلطان لكم عليها ؟!

الرئيس : (بغضب) دعه يتم حديثه ..

الشيطان : مطاردات طويلة شاقة كاد اليأس في كل منها ان يفل عزيمتي .. ولكن النصر لم يجانبني مرة واحدة في ماضي الطويل .. ولذا قررت انُ الحق هذا الشاب بهم .. مهما كلفني الامر ..!!

الرئيس : هذه ثقتي باتباعي .. انهم يستطيعون دائماً انجاز المستحيل ..

الشيطان : نحن عند حسن ظنك يا سيادة الرئيس

سعيد : (بسخرية) وهل جلبته اخيراً الى حظيرة الايمان ؟!

الشيطان : (بتردد، وهو ينظر صوب الرئيس) .. لقد انتصرت عليه ..

سعيد : وكيف ؟

الشيطان : (يتجه الى الرئيس ويشاوره ثم يلتفت الى سعيد) ذلك سر المهنة !!

سعيد : ولكن ..

الشيطان : (باستياء وتردد) ولكن ماذا ؟

سعيد : كيف تم انتصارك عليه .. أليس من حقي ان اعرف وانتم تقصون علي مصائر الآخرين كي اختار ؟

الشيطان : (يتلعثم) ..

سعيد : هكذا كان الاتفاق .. ان اعرف كيف يتم السقوط .. اللحظة التي يهوي فيها الانسان من عليين ، لكي يتمرغ في الوحل ويتساقط عليه الذباب ..

الرئيس : (صارخاً) كفى .. آخر .. (يتوارى الشيطان ويبرز شيطان ثانٍ .. يضحك ضحكات ساخرة وهو يقول)

الشيطان : تدّعيها لحظة سقوط .. وما هي الا لحظة الخلاص ..

سعيد : مم؟

الشيطان : من القيود والاغلال ..

سعيد : من المسؤولية !!

الرئيس : (صارخاً) لا تدعه يجرك الى حوار لا جدوى منه .. اسرع وقص عليه قصتك .. واحرص على الزمن من الضياع ..

الشيطان : ولكننا يا سيدي لا نعترف بالزمن .. انت ادخلت في روعنا هذا .. وقلت لنا ان هذا زيف .. وان الزمن موجود في عالمهم هم (مشيراً الى سعيد) فهنالك فقط يتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر .. فتمر الايام والليالي وتتوالد السنين ، فعلام الحرص على الزمن ؟

الرئيس : زمنه هو .. الزمن الفاني المعلق على حركة الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار .. احرص على زمنه هو فكل لحظة منه بحساب ..

سعيد : (كما لو ينتبه فجأة) الزمن ؟ ولم تقيسانه بحركة الشمس والقمر ، ان قلبي يدق وكل دقة منه تسلمني الى دقة اخرى .. وهكذا ينساب زورقي المنكود في مجرى الزمن الى مصيره المحتوم ..

الرئيس : المهم هو ألا ندع زورقك يركض في اللا جدوى .. وتنتهي؟ قبل ان تكون قد اترعت وجودك بالملذات ..

سعيد : (غير آبه له) ولكن من حقكم وانتم تتحدثون عن الزمن الآ تذكروا القلب ..

الرئيس : لماذا ؟

سعيد : (صارخاً) لانكم بلا قلوب .. الا تشفقون عليّ وتدعوني اعود ؟ (يحاول ان يهرب)

الرئيس : (مشيراً بيده ، وما يلبث الشياطين ان يحيطوا به ويمنعوه من الهروب) انت الذي طلبت ان نقص عليك اقاصيص الظلام والنور لتختار ..

سعيد : (باستسلام) ولكني اكاد اختنق .. هل لي ياسيدي ان اختار في الارض المكشوفة .. تحت الشمس .. بين اخواني ؟ دعوني ارى الشمس بحق ابيكم ابليس (ينتفض كما لو يريد ان يقوم بمحاولات يائسة للفرار) .. (يسد عليه الشياطين الطريق .. ضحك عنيف) ..

الرئيس : (بسخرية) خذوه الى الارض المكشوفة ليرى النور !! (يتجه الشياطين به نحو زاوية مظلمة واذ يشعر بما يبيت له ينتفض مرة اخرى ...)

سعيد : (متوسلاً) بحق ابيكم ابليس ..

الرئيس : (ناهضاً) خذوه الى ما يريد .. (يذهب) .. (يتجه به الشياطين الى الفوهة المظلمة التي تتطاير منها النار .. بينما تنبعث توسلات سعيد من اعماق المسرح ...)

المشهد الرابع

المكان: المرسم في البيت نفسه .. لوحات منجزة ومنظمة بشكل معين واخرى مبعثرة .. لوحة ذات مساحة واسعة تبرز اكثر من غيرها .. اصدقاء سعيد يتهامسون في احد زوايا المرسم ..

الوقت: الليل ..

سعيد : (يبدو كما لو كان ذاهلا يتفرس في وجوه اصدقائه واحداً اثر واحد) ...؟

محمود : لقد تركتنا يا سعيد وخرجت .. دون ان تقول لنا الى اين ؟

سالم : انتظرناك طويلاً .. ولكننا كنا مطمئنين الى انك ستعود ..

خالد : وأصبتما رأسي بالدوار في نقاشكما حول الشياطين (يشير الى إحدى اللوحات) أحدكما يصب عليها اللعنات والآخر يهتف بحياتها !!

سعيد : (منتفضاً) الشياطين ؟ لقد رأيتهم بعيني هاتين قبل لحظات .. لقد رأيتهم .. اقسم على ذلك ..

محمود : (مبتسماً) ها انت تخرج عن ذهولك الى مرحك القديم .. وسخرياتك الحلوة .. ولكن حذار ان تسخر منهم .. لقد سخر منهم (مشيراً الى سالم) وفجأة شعر انه يكاد يختنق ..

خالد : يقولون ان قرونها تتميز بحدة دونها شفرات السيوف .. وان باستطاعة أي منها ان ينشب ظفره في قلب الانسان فيسكته !!

سعيد : اقسم اني رأيتهم ..

خالد : انك مخبول يا سعيد ..

سعيد : اقسم اني رأيتهم .. بقرونهم السوداء المعقوفة .. باظفارهم الصفراء الناشبة .. بنظراتهم الراعبة .. بسخريتهم اللانهائية .. لقد اخذوني ..

خالد : ليجازوك على القربان الذي قدمته لهم ..!

سعيد : ماذا تعني ؟

خالد : (بسخرية) ابوك !!

سعيد : (صارخاً) كفّ عن هذا العبث .. اتسمع ما اقول ؟

محمود : (لخالد) دعنا من سخافاتك .. والاّ ..

سالم : (مقاطعاً) الحق اني أكاد اختنق .. (يتجه الى احدى اللوحات ويتأملها) (يلتفت الجميع الى اللوحات البارزة التي يقف سعيد ، الآن الى جوارها يتأملها)- فاصل موسيقي- (.. ثم يلتفت فجأة ويقول)

سعيد : اعرفتم ماذا تعني هذه اللوحة ؟

خالد : (ساخراً) الوان ..

سالم : مساحات ..

محمود : ظلال ..

سعيد : (بسخرية مرّة) بلى انها الوان ومساحات وظلال (يصرخ) ولكن حياتنا كذلك الوان ومساحات وظلال .. عندما يسفك دم بريء .. لون .. وعندما تنطفىء من عينيه فجأة آماله الخضراء التي لا نهاية لها ولا حدود .. مساحة .. وعندما يواري التراب فيجر من مجرى الحياة الصاخب جراً الى جدار من الاهمال والنسيان .. ظلال .. الوان ومساحات وظلال .. وتدخل قوة ما .. دائماً وفي اللحظة المناسبة .. لتصنع منها لوحات أبدية تنطق بالمأساة ..

محمود : وهل من واجبنا نحن ان نجتر الاحزان .. ونلوك المآسي .. في ما نقدمه من فن ..

سالم : ومعنى هذا ان نضاعف احزاننا باختيارنا .. وذلك ما يثير الشفقة والسخرية معاً ..

خالد : لو وهبني الله قدرة فنان لملأت لوحاتي بما يفرح لا بما يبكي .. ولاخترت من الالوان تلك التي تدفع الانسان الى الرقص .. رغماً عنه ..

سعيد : ما اشقى الانسان الذي يعبر طريق الحياة لطويل دونما موسيقى تعزف لمسيرته الشاقة ، ويجرر خطاه في الصحراء اللاهثة ، ويرى مناظر الشقاء والتعاسة ، دونما لوحات تجمّلها وتلقي عليها الالوان .. فلا يقف وجهاً لوجه امام بشاعة الاشياء وظلام النهايات .. هكذا يبعث الفن في اعماق الانسان مشاعر تعينه على احتمال الظمأ ..

سالم : ارجوك ان تفسر لنا ماذا تعني بهذا المنحنى الشاحب الذي تفوح منه رائحة التراب (مشيراً الى احدى جوانب اللوحة ..) ؟

سعيد : ان روعة الفن تتجلى في ان الكثيرين لا يدركون منه الا جوانب او اضواء تنبعث من هنا وهناك .. اما اؤلئك الذين يسبرون في نظرة واحدة اغوار مقطوعة موسيقية ، او هدفية قصيدة أو لوحة غامضة ، فهم قلة في كل مكان وزمان .. وهذا هو الذي يعطي للفن قيمته الحقيقية ..

سالم : يعني ان ما تريد ان تقوله هو انني لست من هؤلاء ولا من اؤلئك ، لست من الصفوة الممتازة التي تسبر في لحظة اعماق التجربة الفنية .. ولست كذلك من اؤلئك الغوغاء الذين يركضون وراء كل بهرجة بالالوان وصخب في

الاصوات .. ولكني حسب تحليلك في منزلة بين المنزلتين .. ادرك من العمل الفني بعض جوانبه. وهذا هو الذي جعلني اشم من هذا المنحنى رائحة التراب!!

خالد : احمد الله على انك لم تخلق قبل عشرة قرون ، والا لعرضك انتماؤك الى جماعة (المنزلة بين المنزلتين) الى المقت والمطاردة ..

محمود : على العكس من ذلك تماماً .. كان سيحصل على الكثير .. الم تعلم ان الخلفاء آنذاك كانوا في منزلة بين المنزلتين ؟

سالم : اوه .. هذا هو الصحيح .. وان الاخرين هم الذين طوردوا ، وعذبوا ، وضربوا بالسياط ..

سعيد : ونأتي نحن لنختصر في لوحة ، كل مأساة المطاردين والمعذبين والممزقة اجسادهم بالسياط ..

محمود : ولكنك ابعد ما تكون عن الانتماء .. لم تنتم في يوم من الايام الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .. واسمح لي ان اقول لك انك تعيش على الهامش .. اسمح لي فلم يسعفني لفظ آخر !

خالد : ولم تتردد في وصفه بذلك ؟؟ فأن يعيش المرء على الهامش خير له من ان ينتمي زيفاً الى عقيدة او فكرة !!

سعيد : انتمى كثيرون وخرجوا يجرون اذيال الخيبة .. وآخرون حصلوا بانتمائهم على لذات الارض ومناصب الدنيا .. اما نحن فما دمنا على الهامش فهذا يعني اننا متجردون من كل هذا .. واننا بعد في بدء تجربة قاسية ستتمخض اخيراً عن الانتماء..

محمود : انت ؟ انت تقول ذلك .. انت الذي لا تؤمن بقيمة ولا بفكرة .. انت الذي كنت تهرب دائماً من شبح العقيدة وتصرخ دعوني حراً فلن اقدر على حمل الاغلال؟!!

سعيد : الايام تمر بسرعة جنونية ولا نشعر نحن الا واننا نستيقظ صباح كل يوم ، وبعد لا شيء نستيقظ مرة اخرى .. وهكذا اشبه ما نكون بزوارق بلا اشرعة يسوقها المجرى الى مصيرها المحتوم .. والانسان الا ارادي هو وحده الذي يستطيع ان يصرخ عندما يفتح عينيه على حقيقة هذا الخواء ، ليمزق السدف الكثيفة ويحقق حريته التي وهبه اياها الله ..!!

سالم : (لسعيد) لم تقل لي ما معنى هذا المنحنى الذي تفوح منه رائحة التراب ..

وما هذه الصفرة القاتمة التي تذكرني بايام الجنائز والاحزان ..؟

سعيد : المنحنى يعني اننا ما دمنا قد خلقنا فسنموت !!

خالد : هذه بديهية !!

سعيد : (مستمراً) وما دام قد كتب علينا ان نبدأ فسننتهي !!

خالد : تكرار معنوي مع تغير الالفاظ .. حقاً انك تجيد التلاعب بالالفاظ ..

محمود : ظلمات بعضها فوق بعض ..

سعيد : (مستمراً) وان قضية الحياة هي قضية ارقام رياضية دامية – كما يقول كامو – وأنا ، مطاوعة للاداء الفني ، احلتها الى هندسة دامية .. واحياناً وقبل ان يصل الانسان قمة المنحنى .. أي قمة النور .. تجره قوة ما من الوراء .. فيعود من حيث جاء ..

خالد : (بسخرية) يعود الى بطن امه ..!!

سعيد : من هذه التجربة المرّة ينبثق هذا اللون الشاحب الذي تفوح منه رائحة التراب .. الم ترني لم استخدم الاسود ؟ لانه كما تعلم تحصيل حاصل .. السواد يعني الظلمة ولكني لم ارد ان اصل الى الهدف بهذه المباشرة والبساطة .. فالفنان الاصيل لا يسعى الى البساطة ..

سالم : بل الى التعقيد كي يقال انه غامض وانه عميق ..

سعيد : لا هذا ولا ذاك .. الفنان لا يبلغ مجده بالتعمية والتعقيد ، ولكن بان يدرك جوهر الحقيقة بكليته لا بعقله وحده .. وعندما يتكلم الفن بلسان العقل فانه سيغدو فلسفة وعلماً بعيداً عن كل ما هو حيوي وما هو حقيقي .. ان ينظر الانسان الى الحقيقة بكليته .. وان يحيا تجربته بكينونته. فهذا يعني انه سيعبر عن الموت باللون الاصفر الشاحب الذي تفوح منه رائحة التراب .. أما اذا اراد ان يتكلم بلسان العقل فسيعبر عن الموت بالسواد ..

محمود : لو كان شقيقك هنا لعلمك كيف ترسم خطاً مستقيماً يبدأ بالظلمة وينتهي بالنور ..

سعيد : هذا هو عزاء المؤمنين ..

سالم : ولكني ألمح خلف هذا المنحنى ، في الافق البعيد للوحة ، شجرات قد جردت من اوراقها ..

سعيد : لم يهزني شيء ما يوماً كما هزني منظر شجرات جردها الخريف من الاوراق .. ونحن الذين تجردنا حركة اعمارنا من ايامنا ولياليا نلتقي مع هذه

الشجرات في مصير واحد ، مصير الحزين الذي فقد كل شيء ، والذي يقف في العراء وحيداً .. ينتظر نهايته المفجعة ..

سالم : وربما هذا هو الذي جعلك تستعيض عن اللون الاسود ، هنا ايضاً ، باللون الازرق على مدى المساحات المحيطة بالاشجار الجرداء ..

سعيد : بلى .. هذا الذي يوحيه منظر الزرقة .. الزرقة الممتدة بلا حدود .. الزرقة الخالية من الشمس والقمر والمجردة من النجوم .. اوه .. لو اجد سماء احرقها لهيب الشمس او اضاءتها اشعة القمر فأغرقتها في شاعرية لا نهائية .. ها انذا انظر بعيني فأرى كل الاشياء على الارض صغيرها ، وكبيرها، ولكني عندما ارفع عيني الى السماء فلن أرى نجماً واحداً من ملايين النجوم ..

محمود : النجوم لا يراها الا المؤمنون ..

سعيد : لان عيونهم ابداً معلقة بالسماء ..

سالم : ها انت بدأت تعود ..

سعيد : (بسخرية) ، (مشيراً الى جانب اللوحة) ولهذا سهرت الليالي الطوال لأعبر عن يأسي بما هو اهل له !!

محمود : وماذا رسمت اخيراً ؟

سعيد : انظروا الى تلك الزاوية من اللوحة .. عينان فقط .. بلا انسان !! تدوران في ارجاء السماوات تبحثان عن شيء .. وثمة سحابة سوداء داكنة تحجب عنهما الرؤية وتدور حيث دارتا ..

سالم : ها انت تستخدم اللون الاسود ؟

سعيد : لا ليعبر عن الحزن والكآبة .. ولكن ليعبر عن الجدار الذي يقف امام طابور من الضائعين يمنعهم من العبور .. انه اسود لانه لا أمل فيه .. اسود لانه يحجب كل الرؤيا .. اسود لانه يوحي بالعمى والضلال الابدي ..

محمود : ها انت بدأت تعود .. ان يدرك الانسان مشكلته، ان يشعر بمدى ثقلها عليه ، فهذا يعني انه بدأ يبحث عن طريق الخلاص .. وكل المؤمنين وصلوا منذ ان بدأوا يقلبون اعينهم في السماء..

سعيد : ولكن .. (يرتجف صوته).

محمود : ولكن ماذا ؟

سعيد : لم تكن امام اعينهم سحابة سوداء تدور حيث دارت .. لم تكن ابداً بهذا العمق .. وهذه الكثافة .. رباه ..

– ستار –

الفصل الثاني

المشهد الاول

المكان: صالة البيت نفسه ..

الوقت: اصيل احد الأيام .. بعد اسبوع

من أحداث الفصل الاول ..

(سعيد واصدقاؤه في الداخل .. يقرع الباب .. ويدخل أحمد .. تعقبه حركة الاصدقاء وهم يستقبلون الداخل اثر سفر طويل ..)

خالد : (مرحباً) اهلاً بسندباد القرن العشرين .. لقد كان غيابك اطول ممّا كنا نتصور .. ربما لانك كنت في موضع تحسد عليه .. فنساء اوربا كثيرات ، وخدماتهن مجانية .. وقد حدثني من أثق به ان تقديم الثمن يتم من جانبهن في بعض البلدان .. على العكس من الشرق .. تف (يبصق) ..

سعيد : (مقاطعاً) خالد كعهدك به دائماً .. رضع الهزل والسخرية منذ كان طفلاً .. ولا يزال ..

محمود : وقد اوقعه ذلك في مشكلات كثيرة مع الاخرين .. لانه لا يقدّر موضع الهزل والجد ..

سالم : انه يعجبني رغم كل شيء ، لانه يصور لي التناقض الذي نحياه نحن ابناء العصر ، حيث تنبثق الضحكات فجأة من اعماق البكاء .. وبلا مقدمات ..

محمود : انه ليس بهذا العمق كما تتصور ..

سالم : وهذا هو الذي يعطي لدوره قيمته الحقيقية .. فهو بلا تفكير .. وبلا مبررات ، يطلق ضحكاته وسخرياته ، حتى ولو طحنته المأساة او طحنت احد اصدقائه ..

خالد : عندما سأخرج وراء جنازتك ساطلق ضحكات هستيرية .. فاذا اعترض احد ، فسأرد عليه بأن المرحوم كانت تعجبه الضحكات في مناسبات من هذا النوع .. لانها تمثل روح العصر (يضحك بقوة) ..

سعيد : ورغم كل شيء فان له الشرف ان يكون سندباداً يجوب الآفاق ويبحث عن كل ما هو جديد وغريب .. (مشيراً الى اخيه) ..

احمد : ولكن لا تنسى ان العامل الذي اعطى لرحلة سندباد قيمتها .. يفتقده جميع المسافرين في العصر الحاضر .. ذلك ان وسائل النقل السريعة ، قضت على فكرة المسافات البعيدة هدفاً رومانتيكياً وأسطورة .. لقد جاب السندباد أو

بن بطوطة الآفاق على ظهر حمار او جمل او مركب شراعي وفي احيان كثيرة مشياً على الاقدام ..

خالد : وفوق ذلك فانهما زارا المناطق التي يكمن فيها الخطر .. افريقيا والصين واعماق الهند ، حيث زئير الأسود .. وفحيح الافاعي .. وسطوات قطاع الطرق .. اما صاحبنا فلم يزر سوى الأماكن المتمدنة .. حيث لا افاعي ولا اسود .. اما قطاع الطرق هناك فهم ارفع من ان يهاجموا مسافراً غريباً .. ان هدفهم المصارف والمؤسسات التي تتدفق منها انهار من ذهب سائغ للسارقين!!

سالم : ولكن هناك ما هو اخطر من الافاعي والاسود وقطاع الطرق بالنسبة لاحمد .. هنالك الفتنة .. والحي اللاتيني .. والاغراء ..

احمد : ربما كان ذلك سيشكل خطراً حقيقياً بالنسبة لي .. ولكن من حسن حظي ان دراستي لنظرية التحليل النفسي لفرويد .. والتي تقوم على تفسير كل دوافع الانسان بالجنس، جعلتني اسخر من كل ما يمت للجنس بصلة .. لاثبت ، في نطاقي الشخصي على الاقل ، افتراء هذا اليهودي الدجّال ...

سالم : يبدو انه كان يتمتع بثقافة لاتينية لا بأس بها ، لانه كان يطلق اسماء ابطال المآسي اليونانية ، كأوديب والكترا ، على عقده النفسية ...!

محمود : (لأحمد) ولكن لم تقل لنا شيئاً عن ابعاد التجربة التي خضت غمارها هناك قبل ان تعود ..

احمد : عدت بعد ان ذرعت الارض وجبت الآفاق ورأيت ما يبكي وما يضحك ، ما يستدعي الهمس وما يدفع الى الصراخ .. ما يستثير الشفقة وما يثير البغض والكراهية .. ما يغري بالاقدام وما يدعو الى الهروب .. رأيت كل شيء .. وامام كل ابتسامة حفنة من الدموع .. وبعد كل لذة ، ليل طويل مليء بالعذاب .. وقلت في نفسي ..

سعيد : ماذا قلت ؟ لا ريب ان هذا التنوع اعجبك فدفعك الى ان ترحل من مكان الى مكان دون ان تفكر في الرجوع ..

احمد : (مستمراً) قلت في نفسي .. وا أسفاه .. الا توجد في ارض الله الواسعة رقعة .. رقعة صغيرة .. لا يجد فيها الانسان هذا التمزق وهذا التناقض وهذا العبث؟ وقلبت بصري في ارجاء الارض فلم اجد ذلك المكان ..

محمود : واخوك كان يقلب بصره في ارجاء السماء .. كان المنطق ان يحدث العكس ..

سعيد : لا .. فاقد الشيء لا يعطيه .. لقد فقدنا الارض وكان لا بد لنا ان نتطلع الى السماء ..

احمد : ومن عرف تجربة السماء نذر عمره ليبشر بها على الارض ..

سالم : وجبت الآفاق لتبشر بفكرتك ..؟

احمد : لم يكن في طاقتي ان افعل شيئاً هناك .. لقد كنت غريباً .. انهم يعيشون في دوامة لا يجدي معها الصراخ .. وفي آلية لا تسمع معها نداءات الروح .. وفي حيوانية مسعورة لا تنفع معها الايدي الممتدة من اعلى لترفعهم الى المستوى اللائق بكرامة الانسان .. فقررت ان اعود ..

خالد : تعود لتجد اصدقاءك هنا اكثر ملكية من الملك (يضحك) ..

احمد : (بابتسام) التطرف موقف وجودي ، كما يقول كبار المفكرين هناك .. ان تحيا بالقلق والعذاب فعليك ان تتطرف ، في التطرف ستغرق كل قلقك وعذابك وتحيا به وحده .. يقولون انه التجربة الوحيدة للخلاص .. وانه الباب الوحيد المفتوح ..

سعيد : وهل رأيت نماذج من المتطرفين هناك ؟؟

احمد : هذا الذي دعاني لأن ابقى زمناً اطول .. وارى مساحات اوسع .. واجتاز القرى والمدن ، واتنقل من مكان الى مكان .. واقابل الكثيرين من الشوارع والمقاهي وعلى المنعطفات وفي سوح الجامعات والاسواق .. في كل مكان .. رأيت المتطرفين يتخذون مواقفهم الوجودية .. فمنهم من ينتحر .. ومنهم من يقتل .. ومنهم من يزني .. منهم من يغرق فكره واعصابه بالشراب والدخان .. ومنهم من يجوب العالم كالأبله تاركاً جسده يعلق عليه التراب دون ان يكلف نفسه عناء نفضه .. ومنهم من يهرب الى الفن المجنون فيرقص على موسيقى الجاز والروك والتويست كالمخبول .. او يلطخ لوحاته بمزيج من الوان يمر بها على اجساد البغايا ..

خالد : ها قد بدأت تسدد هجماتك الى اخيك ..

احمد : سعيد ليس منهم .. اقسم انه سيعود ، لاني ما ان ألقيت نظرة على لوحته الاخيرة حتى قلت في نفسي ابشر يا احمد اخوك سيعود !! (يتجه الى اللوحة ويتمعن فيها) ..

سعيد : لقد سئمت الصراخ الى حيث لا مرفأ تنتهي اليه سفينتي التي مزقت اشرعتها الرياح ، وحطمت مجاذيفها الامواج ، وغشى طريقها الظلام .. ولم يكن امامي الا الفراغ والخواء .. فوجدت في الخيال الخلاص الوحيد .. وهكذا اندفعت ارسم هذه اللوحة وانا اهتز كالمجنون ..

احمد : ان الانسان يحس احيانا بصغره وضآلته وبأنه ذرة هائمة في ملكوت الله .. بأن أيامه على الارض محدودة .. تمر سريعاً فلا تعود .. ولن يجدي الانسان من زمانه سوى ان يتذرع بالقوة الكبرى حيث لانهاية ولاحدود .. في الايمان تنسحق كل مشاعر الخوف ومشاعر النهاية الفاجعة .. ويحس الانسان انذاك ان كل شيء في هذه الحياة يحمل معنى ويهدف الى غاية .. وانني اتلمس هذه الهدفية في لوحتك الاخيرة يا سعيد ..

سعيد : ان كل شيء في مسرح الكون باق كما هو .. يتحرك ويعود من جديد .. اما نحن فاننا نتحرك ولكننا لا نعود .. ان زماننا محدود .. طريق مستقيم له نهاية ولابد ان نسير على الطريق الى النهاية ، وكل الاشياء الاخرى فيما عدا الانسان تسير في طريق دائرية لا نهاية لها .. (يتجه الى النافذة وينظر في البعيد)..

محمود : (لأحمد) وماذا بعد عن اخبار المتطرفين ؟ الا من يوقفهم عند حدهم ويبين لهم خطورة المصير ؟

احمد : (ضاحكاً) من يوقفهم عند حدهم ؟ ربما شيوخهم ونوابهم لانهم يمثلون الطليعة ولكنك ستعجب إذا قلت لك ان هؤلاء على رأس الوجوديين هناك !!

خالد : كيف ؟

احمد : (بسخرية) لقد وافقوا بأغلبية ساحقة في الاصوات على ان يغدو الشذوذ عملاً شرعياً كالزواج !!

سالم : يا للسخرية .. لقد قرأت ذلك في الصحف ولم أصدقه .. ولكن قل لي لماذا يكاد يجمع العائدون من هناك ، وبشكل عفوي ، على احتقار الشرق .. وانه لا زال في بداية الطريق .. بينما تقدم الغرب بخطوات عملاقة وجعل من اهدافه ان يصل الزهرة ويحيا على سطح القمر ؟؟

احمد : ذلك انهم ذهبوا الى هناك وهم يحملون بين جنبيهم اما الفراغ والخواء .. واما التجربة النفسية ذاتها التي يعيشها الانسان في الغرب .. ولذا تعلقوا بالاشكال .. وعندما تتوازن التجربة النفسية في الجوهر ، حينئذ يدخل الشكل كثقل

جديد يقرر اتجاه الميزان .. وهذا هو الذي حدث .. وانا لا ادافع عن الشرق بل ارثي له ، لانه فقد كل شيء ..

سعيد : (يلتفت اليهم) لقد ذكرني حديثك عن التجربة النفسية بالحلم الذي رأيته امس ..

خالد : (لسعيد وهو يضحك) قص رؤياك على اخيك وسيفسرها لك على طريقة (تعطير الانام في تفسير الاحلام) وحاشيته ..!!

سعيد : لا .. ما دام قد تخصص في منهج التحليل النفسي لفرويد فأريد ان يفسرها من هذه الوجهة ..

احمد : لا هذا ولا ذاك .. فالحلم تحد لوحدة الزمان والمكان .. لقاء بين الرؤية المباشرة في الحاضر ، والذكريات المختزنة في الماضي .. تداخل بين عناصر شتى من الاحداث ، قد يبدو غريباً لا معقولا .. ولكن ، بما انه يهدف لغرض معين ، يخرج عن نطاق اللا معقول .. وفي هذا اللقاء تتفجر كل ازمات النفوس ، وتنحل العقد ، ويشعر انسان انه غدا حراً في تجاوز عذابه وألمه .. فبامكانه ان يثأر من الذين عذبوه ، ويلتقي بالذين فارقوه .. وهنا ، في هذه النقطة ، تلتقي التجربتان او الطاقتان الروحية والنفسية .. الروح بانطلاقها وتحررها وانفساخ مدى رؤياها .. والنفس بتجاوزها للأزمات والعذاب ، وقدرتها على ان تحيا التجربة التي حرمتها في واقع الحياة .. ابتداء بالتجربة الجنسية وانتهاء بالقمة حيث سعادة النفس والروح ، وحيث تلفح الحالمين نسمات من الملأ الاعلى وتريهم بعض جوانب الملكوت الذي وعدوا به. والحلم – احياناً اخرى – طاقة روحية تفتح امام الانسان ابواب المجهول .. وتوضح رؤاه الغامضة في اليقظة .. واحياناً اخرى كثيرة ان هو الا اضغاث من عالم غير معقول .. ولكن (مخاطباً اخاه) لم اعرف شيئاً من حلمك ؟

سالم : رأى انه عاد القهقري الى عهد الطفولة .. وانه راح يمص اصابعه بنشوة بالغة .. وهذا ما يفسره اصحاب مدرسة التحليل النفسي بانه التعبير الجنسي الاول للانسان ..

خالد : وانه قتل اباه ليستأثر بـ ..

سعيد : (بتذمر) لا وقت للعبث .. (يلتفت الى اخيه) ان ما رأيته يخيفني يا احمد لاني أحس بأنه نذير لأيام سود ..

محمود : يقولون ان تفسير الرؤيا سهل ميسور .. وهو ان نقوم فقط باعطاء المعاني المضادة لما حلمنا به !!

سعيد : (مستمراً) رأيت كفاً سوداء هائلة تقترب من وجهي .. لا لتصفعني ، ولكن لتقف هكذا امام عيني الى الابد ..

خالد : اضغاث احلام !!

سعيد : اشحت بوجهي فبرزت امامي كنذير السوء .. هربت في كل اتجاه .. كانت تركض امامي فلا تجعلني ارى الا مدى خطواتي .. صرخت ولا من مجيب .. اغمضت عيني لحظة فغابت عني .. وقلت في نفسي وانا ارتجف من الخوف ابشر يا سعيد لقد انتهت المطاردة .. ولكن ما ان فتحتها حتى وجدت الكف السوداء تقترب اكثر فاسرعت بوضع يدي على عيني لأتقيها ..

خالد : (بسخرية) لم نكن نعلم من قبل انك ملاكم عريق ..

احمد : (بانفعال) دعوه يتكلم ، فاني احس بأن شيئاً ما سيقع قريباً .. سينقض على رؤوسنا .. دعوه ..

سعيد : تقدمت بتحد اكثر فاكثر .. كنت انظر اليها من خلال اصابعي. تحركت بتشنج وسخرية مخيفة ، ودفعت بيدي بعيداً عن وجهي .. وصرخت من الهول .. كانت قد التصقت بوجهي .. فلم اعد ارى ايما شيء الا الرعب والظلام .. (يغمض عينيه ويمد يديه الى الامام كالاعمى ..) ..

احمد : (بتأثر) دعونا من الرؤى .. وحدثنا عن لوحتك الاخيرة يا سعيد ..

محمود : الم تعدنا بتفسير رؤيا أخيك ؟؟

سالم : ولم تستجديه التفسير .. اقلب الرؤيا تجد بغيتك !! (يخرج احمد منفعلاً)

خالد : (ضاحكاً) كف بيضاء بلون الثلج .. يشع منها النور ..كأيدي شيوخنا أصحاب الكرامات

سالم : وهذا يعني انه سيصافح الكف التي كافحها طويلا !!

خالد : لعل هذه كف ابيه .. عادت لتأخذه الى المكان الذي دعاه اليه طيلة حياته ..

سعيد : (يصرخ بهم) كفوا عن ذكر ابي والا ..

محمود : اسمحوا لي بالذهاب .. ان انفاسي بدأت تضيق (يخرج)

خالد : والا ماذا .. دائما تستخدم معنا هذا الاسلوب وتطلق في وجوهنا هذه الصرخة .. الم تقل انت مرار ان حريتك الزمتك بقتله .. وانك انتصرت اخيرا على الابوة التي اسميتها لعنة الاجيال ؟؟

سعيد : قلت لكم كفوا عن هذه السخرية ..

سالم : اطعه يا خالد .. فان الكف السوداء علمته كيف يلاكم .. اطعه قبل ان يهشم انفك ..

خالد : كم كنت اتمنى لو قامت تلك الكف بتدريبه على هذا الفن .. اذن لاحسن ملاكمة ابيه .. ولقضى عليه بالضربة القاضية ..(يضحكان)

سعيد : (يصرخ) قلت لكم كفا عن هذا .. انكما تقطعان اعصابي بهذه السخرية ..(ثم برفق) ارجوك يا خالد ارجوك .. (يستمران في ضحكهما .. ويهمس احدهما في اذن الاخر فيزداد الضحك ، سعيد يقوم بحركات توحي بان في عينيه ثمة شيء ، وكأنه يتأكد – بوضع يديه على عينيه وابعادهما – من مدى سلامة نظره .. يطرق الباب بعنف .. يتوقف سالم وخالد عن الضحك .. يتجه سعيد بخطى متعثرة صوب الباب ويفتحه .. يمرق ابراهيم وهو ينزف دما غزيرا ..)

ابراهيم : (بصوت مجهد) انهم يطاردونني .. لقد حكموا علي بالاعدام .. (سالم وخالد يتهامسان ، ثم ينسحبان بذعر ..)

سعيد : (وهو يدقق نظره الواني بابراهيم) انني لا اكاد المحك .. ماذا حدث ؟؟

ابراهيم : لقد اصابتني رصاصة في ذراعي ، وانا اجري كالمجنون ..

سعيد : (مناديا بتأثر) خالد .. سالم .. اسرعا بالضماد .. (يكرر النداء دونما جواب) سأقوم انا بلف جرحك ريثما يتاح الوقت لاستدعاء طبيب .. (يبحث بحركة متخبطة عن قطعة قماش .. يتعثر .. ثم يقف لحظة والخوف يتجسد في ملامح وجهه .. ينظر الى اعلى .. يقترب من اللوحة فيمر عليها بيده ... ثم يتجه بخطوات وئيدة ، متعثرة صوب ابراهيم الذي ينظر اليه مشدوها .. وفجأة، يرقع سعيد رأسه ويصرخ) احمد .. احمد .. احمد .. الكف السوداء يا احمد .. الكف السوداء ..

– ستار –

المشهد الثاني

المكان: المرسم السابق ، تبدو في صدره بوضوح شرفة تطل على الخارج تفصلها عنه ستارة رقيقة ..

الزمن: الليل ..

(يبدو سعيد وقد فقد بصره ، يمر على بعض لوحاته القديمة .. ثم يقف ليتلمس لوحة ذات الوان مبعثرة .. يغمس كفه في اللون الاحمر ويقترب ثانية من اللوحة .. يحرك يده عليها برفق .. فجأة يلتفت صوب الجمهور رافعاً كفه الحمراء .. يدخل أحمد وينظر الى سعيد بتأثر ...)

احمد : سعيد .. أثمة جرح ينزف من يدك ؟

سعيد : لقد اغمض القدر عيني إلى الابد .. اغمضها بهذه الفجأة على الخارج ، ولكنه فتحها بقوة وبعنف على اعماقي .. وها انذا لم اعد ارى أي شيء يحيط بي .. لا النور ولا الظلام ، لا الخشن ولا الاملس ، لا الليل ولا النهار .. لقد سقط قناعا الزمان والمكان واختفت معالم الاشياء .. لم اعد ارى أي شيء وانا انظر هكذا .. افقياً (مشيراً بيديه رافعاً رأسه) لم اعد ارى أي شيء .. ولكني عندما انظر إلى الداخل ارى اشياء كثيرة وعوالم لا تحدها حدود .. ومساحات ملونة على اروع ما تكون .. انني انظر الى الخارج فلا ارى الا الظلام والعدم .. ولكن ثمة نافذة بلا اطار فتحت على اعماقي ألمح من خلالها الملكوت ! لقد طمس على بصري .. وانا سعيد بذلك ، لأن بصيرتي ، التي ظل مطموساً عليها في الماضي الكئيب الطويل، مزقت استارها فجأة في اللحظة التي فجعت فيها بعيني .. فاذا بها ترى .. ويا لها من رؤية لا نهاية لها ..

احمد : حدثنا عن رؤياك يا سعيد ، وامسح عن قلوبنا مرارة الحزن .. ودع أعيننا تنام على الطمأنينة .. ان فجيعتك بعينيك جمدت اعيننا في محاجرها .. فتحتها على الدهشة .. والحيرة .. والانتظار .. لم نعد نستطيع اغلاقها .. وننام .. حدثنا يا سعيد عن رؤياك الجديدة علّ اعيننا تتحرك من جديد (يتهدج صوته كما لو يريد ان يبكي) ..

سعيد : (بصوت متهدج هو الآخر) لكم اتمنى لو اتيح لي رسم ما اراه .. بكل ألوانه .. بكل مساحاته وظلاله وابعاده .. اذاً لاطلعتك على جزء صغير .. ضئيل .. من الملكوت الذي اشرف عليه عبر نافذة بلا اطار ..

احمد : لا تجهد نفسك في العودة الى السجن الذي انطلقت وعبرت جدرانه الكثيفة الى الحرية الحقيقية ..

سعيد : (مخاطباً الجمهور ثانية) لو اتيح لي ان افتح عيني لحظة واحدة .. فقط لاستطيع ان أريكم ماذا تعنيه تلك اللوحة .. فقط لاستطيع ان اضع يدي على الحدود .. ولكيلا اشير الى الظلمة عندما اريد ان اقول لكم ان هذا مصدر النور ..

احمد : ضع يدك على الظلمة وقل هذا مصدر النور .. فهذه هي الابعاد الحقيقية لرؤياك .. ان ينبثق نهارك من الليل وبصرك من العمى ..

سعيد : احمد !!

احمد : (يقترب اكثر) ..!

سعيد : لقد انتظرتك طويلاً لتساعدني .. وها أنت ذا جئت اخيراً ..!

احمد : ولكن .. الا ترغب في ان نخرج سوية الى الشرفة لنستمتع بعض الوقت ببرودة النسيم ؟؟ هل ثمة ما تفعله هنا ؟

سعيد : بقيت امامي لوحة واحدة فقط .. نصف لوحة في الحقيقة .. ساحاول ان اضع لمساتي الاخيرة عليها .. ارجوك ان تساعدني ..

احمد : لا تجهد نفسك .. دعنا نخرج الآن .. ان لي حديثاً معك ..

سعيد : اني احس ان في اعماقي حواراً بين اليأس والامل .. بين سخرية ماضيّ وهدفية مستقبلي .. وان بضع ضربات على اللوحة ، التي لم أتمها بعد ، تكفي لأن تريك هذا الحوار ..(يأخذ احمد بيده .. ويتجهان الى احدى اللوحات .. وهي نفس اللوحة التي دار حولها الحوار في مشهد سابق ...)

سعيد : (مشيراً الى سائر اللوحات ومنتهياً باللوحة البارزة) اترى .. ان كل ما رسمته قبل عماي لا يعدو ان يعبر في مداه القريب والبعيد عن خيبة امل كاملة .. وعن سخرية مرة .. وعن عبثية لا مجدية .. اشجار مجردة الاوراق (مشيراً بيده بدقة على اجزاء اللوحة) سماء بلا نجوم .. منحنيات صفراء شاحبة كالقبور ، تبدأ بالظلمة وتنتهي بالظلمة .. ألوان عنيفة متداخلة توحي بالتمزق .. ظلمات بعضها فوق بعض (يبتسم)

احمد : هذا رائع .. انك تشير الى كل جزء من اجزاء اللوحة بدقة عجيبة ..

سعيد : اني ارى بوضوح !!

احمد : والآن .. آن لك ان ترى .. حوارك للآخرين ألواناً وظلالاً ومساحات .. آن لك ان تضع لمساتك الاخيرة .. لمسات انسان ينظر الى الكون عبر نافذة بلا اطار !!

سعيد : (يتلمس الفرشاة ويعطيها لأحمد) اللون الاخضر ..

احمد : (يغمسها في اللون الاخضر ويعطيها لسعيد) ...؟

سعيد : (يرفعها الى مستوى عينيه) آن للاشجار التي جردها الخريف ان تورق ، وهل ثمة معنى للخريف بعد .. وانا .. في هذه اللحظة في غمرة الامل ؟ (يحركها على الاشحار ثم يعطيها لأخيه) الازرق ..

احمد : (نفس الحركة السابقة) ..

سعيد : ها أنذا الآن ارى في اعماق السماوات ملايين النجوم .. تتلألأ هناك تبسم لي .. تدعوني .. كل منها تحكي قصة انسان ما على الارض .. انسان ارتفع على ابعاد الزمان والمكان وحصل على الخلود .. انسان ما تجاوز بالكارثة كل عذابه وألمه ويأسه .. وحصل على الايمان .. ها هي ذي .. ملايين في اعماق السماوات .. تبتسم لي تدعوني (يحرك الفرشاة على اللوحة ...)

احمد : انك مدهش يا سعيد .. ان بامكانك وانت بلا عين ان تفتح اعين الاخرين على الحوار الذي يهدر في اعماقك ، وان تسمعهم نشيد الانتصار .. (يستلم الفرشاة من يد سعيد ويغمسها في اللون الابيض ثم يعطيه اياها) وها هو الصفاء .. آن لك ان تمشي به على الظلمات .. وان تفجّر النور في اعماق العتمة .. وان تقول للمعذبين الهاربين من اقدارهم بلا جدوى .. ان تقول لهم .. ان طريقكم سينتهي بالنور والانتصار .. ان عليهم الا ييأسوا .. فانه لا ييأس من روح الله الا الكافرون ..

سعيد : (يتسلم الفرشاة ويحركها على اللوحة باتجاهات شتى ..) (فاصل موسيقي، يرمي بالفرشاة .. ويحرك يده على اللوحة بعصبية ...)

سعيد : من هذا المكان برز اليّ الشياطين .. تقدموا الي من كل اتجاه .. سدّوا علي كل المنافذ .. حاولت ان اهرب وان اصرخ ، لكنهم منعوني وخنقوا صوتي بضحكاتهم .. يا لها من ضحكات .. لقد زلزلت كياني والبست علي

الحق الباطل فلم اعد ارى حقيقة الاشياء .. كانت عيناي مفتحتين آنذاك ومع ذلك لم ار اي شيء .. !!

احمد : والآن ؟

سعيد : الآن .. وفي هذا المكان نفسه .. احس رغم عماي ان ثمة نافذة انفتحت في اعماقي على النور .. وان احساساً عميقاً بالايمان يغمر كياني كله .. وان اجزائي الضائعة المبعثرة عادت لتلتئم من جديد .. واني أحث الخطى في طريق عريض منتشي القلب والروح ، تعمر طريقي رؤية حقيقية لازيف فيها .. وفوق كل ذلك احس بان الله ينظر الي من اعماق السماوات سبحانه ..

احمد : الم اقل لك ان نهارك سينبثق من الليل وبصرك من العمى ؟؟

سعيد : وأي نهار ؟! لكأنما خلقت من جديد .. فمن دوّامات القلق والسأم والمتناقضات تفجرت مشاعري حباً وايماناً .. ومن الجفاف والتمزق وكراهية الزمن ومحاولة دفعه .. انبثقت في اعماقي رغبة عميقة في العودة الى الحياة والاستسلام النشوان للشمس والبراعم الندية ..

احمد : بالايمان يتحول المعذبون الى اغنية عميقة .. تغدو كل القيم والاشياء في الخارج توافقاً رائعاً يملأ الانسان بالشوق والدهشة والحياة ..

سعيد : في ماضيّ .. كان كل مايوحي بالسقوط والنهاية يملؤني بالخوف .. والرعب .. لانه يذكرني بالموت والظلام الابدي .. وحينما كنت احاول الهروب من الخوف الى الطمأنينة كان يصدمني اني سأنتهي ..

احمد : وما وراء ذلك ظلام في ظلام ..

سعيد : كان ينتابني احساس كامل باني غدوت من المأسورين .. وان كل ما كنا نفعله ، ونضيع من اجله الجهد والزمن ، لا يتعدى حدود القيود التي تكبلنا .. فنحن ندور في حلقة مفرغة ، نستحث خطانا الى اللا مكان لكي نبدأ من جديد .. وعندما نريد ان نفتح ثغرة في الطريق المسدود ، تغلفنا الحيرة بضباب كثيف كالدخان ، يخنق انفاسنا ويهددنا بالضياع .. كل ما هنالك اننا بعيدون عن الله .. ليس ثمة معالم في الطريق ما دمنا قد اشحنا بوجوهنا عن مصدر النور الابدي وانطلقنا كالسكارى نترنح في اعماق الضجيج.

احمد : وماذا كنت تفعل ازاء هذه العبثية .. وهذا الرعب ؟؟

سعيد : مـا كـان لـي آنـذاك الاّ ان اغـرق فـي التفاهـة والسـخف .. وان أطفـو واحاسيسي على السطح.

احمد : السأم والفراغ !!

سعيد : عند ذلك كان ينتابني عطش محرق الى كل ما ينسيني الحس ويغرقني في الروح ..

احمد : بلا ايمان .. توصد كل ابواب الروح في وجوه الباحثين .. وما يرونه في البعيد هو السراب ..

سعيد : وهكذا ، وفي كل محاولة كنت اعود من حيث جئت .. حزيناً ، متعباً ، ومكدوداً ..

احمد : لقد رأيتهم هناك .. ورأيت الضحكة الهستيرية والهروب المجنون .. رأيت الاقدام الثقيلة التي تركض على البراعم فتسحقها ، وسمعت الاصوات المبحوحة وهي تحجب ضوء الشمس .. ورأيت الاعين الكليلة تغمض اجفانها في نور القمر ..

سعيد : كان العبث والعذاب في كل مكان .. اينما نتجه وحيثما نهرب .. العبث والعذاب .. وهكذا كنا نطحن أنفسنا بايدينا .. كان الماضي يكمن لنا في كل مكان .. كان يأسرنا ..

احمد : آن لك ان تدع كل ما يشدك الى الماضي .. وتتقدم بخطى ثابتة الى المستقبل الذي يدعوك .. انسانا صنع من المحنة هدفه العظيم ..

سعيد : الماضي ..؟ هل ثمة معنى بعد للماضي ...؟ (يتحركان صوب الشرفة المطلة على الخارج)

احمد : كان عليك ان تغمض عينيك .. منذ اللحظة التي صفعت فيها اباك .. وان تفتحهما على المهزلة التي تدفعك اليها تمزقك وضياعك .. كي لا تتعذب ..

سعيد : لم استطع ان اغمض عيني .. وان اشيح بوجهي .. كنت احس اني اركض الى الهاوية .. وان علي ان انظر الى الرعب الذي ينتظرني في نهاية الطريق .. وفي اللحظة الاخيرة .. وقبل ان اسقط

احمد : ... لعلك تقصد ...؟

سعيد : بلى .. العمى .. تلك القوة العلوية التي خلصتني في الوقت المناسب من رؤية لحظة السقوط .. كان سيقتلني الرعب .. كنت سأفقد عقلي ..

احمد : القوة العلوية هي القدر يا سعيد .. القدر الذي يسوق كلاً منا في مجرى حياته ووجوده .. الى مصيره المحتوم .. تارة بالهدوء والانسياب واخرى بالعنف والصخب .. ومن ثم يختفي احيانا .. فيبدو للكثيرين ان ليس ثمة اقدار تصنع وجودهم وتسوقهم في مجراهم .. ولكن سرعان ما يعلن القدر تحديه لهذا الجهل .. هذا النسيان .. فيبرز فجأة مزيحاً ظلمات الوهم والعبث ومركزا هدفه في شيء واحد .. ان يصنع وجود الانسان امام وعيه .. ان يشكله تجاه رؤياه .. وان يقنعه انه موجود .. وان ليس ثمة انسان بلا قدر !!

سعيد : كانت تجربة الماضي تدور حول هذا الفهم .. ولهذا ضعت .. كنت اجهل قدري .. ولهذا تمزقت .. اعلنت حربي على هذا الاسناد العلوي .. فشعرت اخيراً بضعفي وعجزي وألقيت السلاح ..

احمد : ذرة هائمة في الملكوت .. لولا قدرها المرسوم .. لضاعت ولم تعد ترى .. وبالقدر وحده تدخل في بنية الكون وتسهم في صنعه ..

سعيد : وبهذه الهدفية الكبرى يشعر الانسان بحريته .. فأن تضيع .. وان تحيا على السلب .. ان تلقى كالقمامة في زوايا الاهمال والنسيان .. ان لا تصنع شيئاً .. فهذا هو القيد الذي يكبل الانسان ويشله عن الحركة ..

احمد : ويبرز القدر فجأة .. بعد ان ابتعد عن المباشرة لينظر الى الانسان من بعيد .. يبرز في اللحظة الفاصلة من حياة الانسان .. متخذاً اشكالاً شتى للبروز اكثر مأساوية من أي حدث آخر مباشر في حياة الانسان ..

سعيد : أدركت ذلك منذ اللحظة الاولى .. ولذا عانقت قدري بشوق عميق وقلت أبشر يا سعيد .. ها انت تحصل على الاسناد ، وتجد من يدعوك وانت ملقى كالقمامة في زوايا النسيان .. يدعوك لا لتصنع مستقبلك فحسب ، بل لتسهم في صنع مستقبل الكون .. وتمارس حريتك ..

احمد : من وراء حجب العمى ، والليل يا سعيد .. ها أنت ذا تجد حقيقة الايمان .. ويشدك الاحسان الى الملأ الاعلى .. وترتفع على اجنحة الشوق الى مسارح الملكوت .. ويتفتح وعيك ووجدانك على الرؤية الواسعة التي لا يحدها مكان .. ولا زمان ..

سعيد : (بتأثر) تكلم يا اخي .. تكلم ، فاني احب ان اسمع صوتك !!

احمد : ها انت تستمد من القوة العظمى التي خلقت الكون وبعثت الحياة في الموجودات ، فتحطم اغلالك وتخرج من الاسر .. ومن الحب والجمال ، اللذين يحكمان سنة الحياة والكون ، ينبض قلبك بحيوية لا بدء لها ولا انتهاء .. وترف روحك فلا تعترف بالحواجز والقيود ..

سعيد : تكلم .. تكلم .. فاني احب ان اسمع صوتك !!.

احمد : ها أنت ذا تعيش غمار التجربة العظمى التي يعيشها المؤمنون. والآفاق البعيدة التي يحثون الخطى اليها .. على هدى الاصوات المؤمنة التي ترتفع فجر كل يوم توحد الله ... (يرتفع صوت اذان مؤثر من بعيد) في اللحظة التي يتداخل فيها النور بالظلام والشمس الساطعة على طريق القمر الازرق الحالم .. والفجر الجديد بالليل القديم ...

سعيد : تكلم يا أخي .. تكلم .. فان الايمان ، الذي يتفجر في قلبي كينبوع ازلي لا ينضب ، يجد في صوتك صدى لشوقه اللانهائي .. تكلم .. فاني احس ان الله ينظر الي من ملكوته .. وانا عائد اليه .. رباه ..

احمد : (بتأثر) أتدري يا سعيد ..؟

سعيد : ماذا ؟

احمد : انك الآن في القمة .. انني احسدك (يبكي) ..

سعيد : من الحضيض الى القمة ..

احمد : من اجل هذا يقول الله في ملئه الاعلى صبوا العذاب على عبدي فاني احب ان اسمع صوته !!

سعيد : من الحضيض الى القمة ؟ هكذا في لحظة ...؟ اية سعادة هذه .. واي مصير عظيم ؟! (يصرخ) ايها القدر .. اني احبك .. اني احيك ..

– ستار –

تحليل شخوص المسرحية

١ – سعيد

مثال واضح لانسان القرن العشرين .. القلق .. التمزق .. والضياع. تسيطر عليه فكرة البحث عن حل لأزمته .. في البدء سعى الى الحل عن طريق الاغراق المادي ، وعندما تبين له ألاّ جدوى من ذلك ازدادت ازمته تعقيداً وشملت مساحات واسعة من نفسه ووجدانه .. واخذ يسعى بالتدريج الى حل على مستوى آخر : فكري ، نفسي ، وجداني ، ينبثق عن كونه فناناً ذا تجربة بعيدة الاغوار. علاقته بأبيه مقطعة الاوصال تسودها القسوة والسخرية .. صراع بين الشك والايمان ينتهي بانتصار الاول عن طريق العنف.

في المشهد الثاني توضيح للابعاد النفسية والفكرية والوجدانية لسعيد ، وحواره مع اصدقائه يبين ذلك ، فضلا عن انه يوضح اللا جدوى التي تقف امامه في كل محاولاته. في نهاية المشهد يصدمه خبر اصطدام ابيه وينقلنا هذا الى مشهد جديد يقوم على الرمز والحلم واللا وعي في اطار من السخرية والعنف .. ومن خلال حواره مع الشياطين نلمح شكه العميق بكل شيء حتى بالشك ذاته .. والشياطين لا منطق لها .. لذا ينتهي المشهد دونما نتيجة .. النتيجة الوحيدة هو جرهّ بالقوة الى هاوية الضلال .. ارغامه على الكفر .. دون ارادة منه او وعي ..

في المشهد الرابع ، الذي يقوم على تداخل اللحظات الزمنية ، يبدو سعيد كما لو ان الصراع والصخب في المشهد السابق قد اسلماه الى الذهول والهدوء العميق .. كما تبدأ بذور الفطرة تتفتح في اعماقه .. وعن طريق تحليل اللوحة ايحاء بالعودة الى الايمان ، وفي الوقت نفسه بالمأساة التي ستقع قريبا ..

في الفصل الثاني توضيح لأبعاد علاقته بأخيه (احمد) وهي نفس علاقته بأبيه سوى ان أخاه يتميز بوعي كامل لكل الابعاد النفسية والميتافيزيقية للمأساة .. لذا فتأثيره على سعيد عميق الجذور بالرغم من انه لم يصل به الى مرحلة الايمان .. وتشتد ايحاءات الكارثة التي ستقع عن طريق تحليل الحلم الذي رآه سعيد .. وينتهي المشهد بعماه.

في المشهد الاخير نحس برودة السلام النفسي للبطل .. بعد صراع طويل ، وكأنما مأساته بعينيه أغلقت رؤياه على الخارج ولكنها فتحتها على الداخل واعطته ما كان ينشده طيلة حياته .. الايمان بكل ابعاده .. وبالرغم من ان احمد يبدو في هذا الفصل كما لو انه يقوم بدور الدليل الى شاطيء الحرية الحقيقية الا ان الدور الاساسي في ذلك هو في مأساته الشخصية التي فتحت بصيرته على الله سبحانه وتعالى .. وأعطته الايمان ..

٢- الأب

شيخ كبير ماتت زوجته في حريق أتى على داره .. وهو صاحب حانوت لبيع الكتب القديمة .. ثقافته لا بأس بها .. تعتمد على مطالعاته في المصادر القديمة وعلى مناقشاته مع اصدقائه .. وهو عميق الايمان .. يشعر باطمئنان يشمل كل جوانب نفسه .. فهو مثال معاكس تماما لابنه .. وهو شديد الحرص على هداية ابنه .. لذا فالمناقشات بينهما لا تنتهي .. المناقشة من جهته محاولة جادة لاخراج ابنه من الظلمات الى النور .. ومن جهة ابنه سخرية .. وشك بكل القيم الموروثة .. وبكل ما يصطلح عليه في عالم الايمان .. وكل المناقشات تنتهي باللا جدوى ، فالاب يتكلم بمنطق الجيل الماضي والابن بمنطق الانسان المعاصر .. لذا فلا امل في التقائهما ويبلغ التوتر قمته في اواخر المشهد .. الابن في سخريته وتذمره وعذابه .. والاب .. في عطفه وشفقته وحبه العميق .. وينتهي المشهد بالصفعة التي يوجهها البطل لابيه .. وهي في الحقيقة صفعة الانسان المعاصر لكل القيم .. وتمرده على كل قديم ..

٣- احمد

شقيق سعيد .. في البدء يكون غائباً عن مسرح الاحداث .. بسبب سفره الى الخارج لاكمال دراسته في موضوع (التحليل النفسي لفرويد) .. وتتيح له هذه الدراسة .. فضلا عن كثرة اسفاره الى شتى البلدان .. بعدا في تفكيره .. وعمقا في تجربته .. وهو مؤمن عميق الايمان .. ولذا فان كل مايصدر عنه ينبثق عن تجربته الايمانية .. وهو مثال لاولئك القلة من الغرباء الذين ادركوا مآسي القرن العشرين .. وحواره يصور لنا طبيعة النداءات التي يدين بها هؤلاء حضارة القرن العشرين وانسانها المعذب .. وحواره مع اخيه هو حوار بين انسانين بلغا القمة في عنف تجربتهما ، ولذا فان الاسلوب الذي سيخاطب به اخاه بعيد التأثير.. ويظهر (احمد) في المشهد الاخير كمثل اعلى لسعيد .. يقوده عبر ماضيه الطويل الى شاطىء الحياة الحقيقية .. والايمان ..

٤- محمود وسالم

صديقان لسعيد جمعت بينهم الرغبة في الهروب .. ووجدوا في الخمر الباب الوحيد المفتوح .. وهما يتميزان ايضاً بتجربة عميقة .. وثقافة واطلاع واسعين ، ولذا فان حوراهما مع سعيد يتميز بالتكافؤ بالافكار والملاحظات المطروحة ، سوى ان سعيد اكثر احساساً بالمأساة .. وبالعذاب منهما .. فبينما وجد كل منهما في الخمر .. واللذة .. طريقا يخلصهما من الازمة .. نجد سعيد .. ينعى عليهما اطمئنانهما الى هذا الطريق .. في الوقت الذي يجد هو في كل شيء .. العبث والزيف والخداع ..

٥- خالد

صديق آخر .. يحضر معهم جلساتهم .. ويتميز بثقافة اقل عمقاً من الآخرين ولكنه يملك روح السخرية والمداعبة .. وتأتي تعليقاته دائما كما لو انها في غير محلها .. ولكنها تصوير لما تعانيه البشرية في هذا القرن من تناقض يتماثل في الضحك المنبثق من صرخات البكاء ..

٦- ابراهيم

صديق آخر مثل محمود وسالم .. ولكنه ينتفض فجأة .. ويتمرد على الواقع الذي يحيونه .. وينعى عليهم هروبهم وجبنهم ونسيانهم .. ان ما يجعله يتمرد هو ذكرى احد اصدقائه الشهداء .. تلتمع في ذهنه فجأة .. فتبعث في نفسه ذكرى حزينة باكية .. وفي الحوار بينه وبين اصدقائه .. كما لو ان هنالك قوة روحية علوية تناديه وتسعى الى تخليصه من المستنقع الذي يتمرغ فيه واصدقاؤه .. وكل نداءات اصدقائه لا جدوى فيها ، حيث ينتهي الامر باستجابته للنداء العلوي وتحطيمه للكأس الذي يرمز للطين الذي لصق به طويلاً .. ويختفي ليظهر أخيرا في ختام المشهد الاول من الفصل الثاني ، وهو ينزف دما من جرح مميت ، بعد ان ضرب بالرصاص اثر مطاردات مرهقة.

وينزل الستار على المشهد وهو بين الحياة والموت.

٧- رئيس الشياطين :

ضخم الجسم .. جهوري الصوت .. يتسم حواره بالجدية المنبثقة عن ايمانه بأهمية مركزه كرئيس .. يمتلك سلطة مطلقة على اتباعه .. يأمر .. فيطاع ..

٨- بقية الشياطين :

شخصيات شيطانية يقوم حوارها على الزيف والخداع وقلب الحقائق ، ويتميز ماجن عنها بكثرة سخريته ومداعباته ..

والشياطين جميعا في هذه المسرحية لا يعدون ان يكونوا رموزا لقوى الطاغوت التي تسيطر على مقاليد الحكم والسلطان في عالمنا الراهن ، والتي تعتمد اسلوب التشكيك وقلب الحقائق ، حتى اذا شعرت بعجز اسلوبها هذا ازاء المؤمنين عمدت الى العنف والارهاب وكتم كل صرخة يمكن ان ترتفع مدوية لتدين منطق الطغيان وقسوته ..